الكتاب

أرض الشتاء

المؤلف

زين الدين زيدان

أرض الشتاء

بعد أن وصلا ونيس وأسيل إلى باب أرض الشتاء، توقفا أمام المنظر الساحر الذي يحيط بالمكان. كان الباب ضخماً، تزينه نقوش رائعة وزخارف معقدة تحمل تفاصيل دقيقة، تبدو وكأنها تحكي قصصاً عن عظمة هذه الأرض. الهواء كان مشبعاً برائحة الأزهار العطرة، والزرع الأخضر يحيط بالمكان، مما أعطى إحساساً بالهدوء والجمال الذي يتناقض مع قسوة الشتاء المتوقعة خلف هذا الباب.

ابتسمت أسيل وهي تقول بصوت هادئ:

- رائحة المكان جميلة، أليس كذلك؟ أستطيع أن أشعر بجماله حتى دون أن أراه.

اندهش ونيس وأسيل من هذا الجمال ورائحة المكان لدرجة أنهما وقفا لبرهة يتأملان دون أن ينطقا بكلمة. ولكن فجأة، انفتح الباب قليلاً وظهر الحارس، رجلاً طويل القامة يرتدي درعاً مميزاً عليه نفس النقوش الموجودة على الباب. بدا واثقاً، لكنه لم يكن عدوانياً.

دفع ونيس أسيل برفق خلفه، متيقظاً لأي ردة فعل قد ينشأ. ثم خطا الحارس نحوهم ببطء، ملاحظاً حذرهم. عندما اقترب، وقال:

- لا داعي للخوف. ما دمتم لم تخالفوا قواعدنا، فلن تكونوا أعداءنا. أظن أنكما لستما من هذه الأرض، أليس كذلك؟

تقدمت أسيل من خلف ونيس بخطوة صغيرة، وقالت بتردد:

- أجل، يا سيدي. لسنا من هنا، ولكننا بحاجة إلى الدخول. هل يمكننا العبور؟

رفع الحارس حاجبيه وكأنه يفكر للحظة، ثم قال:

- لا ولكن هناك وسيلة... بعد يومين، سيتم نقل مجموعة من العبيد إلى داخل أرض الشتاء. يمكنكما الاندماج معهم والدخول. في ذالك اليوم ليس لنا دخل بأي شخص يدخل او يخرج.

بعد مرورو يومين في موعد حضور العبيد الي ارض شتاء كانت البواب مفتوحه وقد دخل ونيس واسيل بعد عبور العيبد نظر ونيس حوله وهوا يشرح الأفاق لأسيل كان غريبين علي الارض مثلهم مثل العبيد أتين الي أرض غير ارضهم .

تمشو قليلاً في طريق حتي وصلو الي مهرجان ما عندما اقترب من المهرجان سأل ونيس احد المنتظرون عن ماذا يقوم بهذا المهرجان اجاب:

- هذا المهرجان يتم حضور العبيد من جميع انحاء العالم ويتنافسون جميعهم علي الحرية.

قاطعه ونيس قائلاً:

- يتنافسون كيف!

اكمل رجل:

- يقاتلون بعضهم البعض والعبد الوحيد الذي يبقي أخيراً يتم تحريره وياخذ مبلغ مالي وبيت في هذه أرضنا "أرض الشتاء"

همم ونيس وقال:

- هل يمكن لأي شخص أن ينضم لهذا المهرجان حتى وإن كان ليس ضمن العبيد

تكلم رجل قائلاً:

- نعم ولكن قد تفقد حياتك هناك.

توقف قليلا ونظر الى ونيس وبعدها نظر إلى اسيل ثم أكمل:

- وقد تفقد حياتك هناك وتحزن عليك هذه الجميلة.

نظر ونيس إلى أسيل التي بدا على وجهها القلق والاضطراب، فابتسم ليطمئنها، لكنه في داخله كان يفكر في كلام الرجل. مهرجان يقاتل فيه العبيد من أجل حريتهم؟ بدا الأمر له قاسياً وغير عادل، لكن فكرة المشاركة خطرت له فجأة. إن فاز، فسيحصل على المال والمنزل، وربما يتمكن من استخدام ذلك لصالحه في هذه الأرض الغريبة.

أخذ نفساً عميقاً وسأل الرجل مجدداً:

- متى يبدأ القتال؟

رد الرجل وهو يشير بيده نحو الساحة الكبيرة:

- بعد غروب الشمس بقليل. لديك الوقت للاستعداد إن كنت تنوي المخاطرة بحياتك.

تقدم ونيس خطوة للأمام وكأنه قد حسم قراره، لكن يد أسيل أمسكت بذراعه فجأة، وقالت بصوت خافت.

- ونيس، لا تفعل ذلك... لا أريد أن ينتهي طريقنا هنا.

نظر إليها، وعيناه تلمعان بحماس ممزوج بتكبر، ثم قال:

- لا تقلقي، لن أخسر انا الاقوي، لكن ربما هذه فرصتنا لنبدأ من جديد هنا.

صمتت أسيل للحظات، ثم أطلقت تنهيدة قصيرة وهي تدرك أنها تستطيع منعه، لكنها قالت بحزم:

- إذن، على ان اشجعك بكل ما املك.

ابتسم ونيس وهو يشعر بشيء من الطمأنينة، ثم التفت إلى الرجل مجدداً وسأله:

- أين يمكنني التسجيل للمشاركة؟

أشار الرجل نحو خيمة كبيرة في وسط الساحة، حيث كان عدد من الأشخاص يصطفون، بعضهم عبيد يرتجفون خوفاً، وآخرون يبدون أكثر حماسة وتحدياً. مشى ونيس نحو الخيمة، وأسيل بجانبه، وعيناهما تتطلعان إلى المصير المجهول الذي ينتظرهما في أرض الشتاء.

عندما اقترب ونيس من الخيمة، لاحظ وجود عدد من الرجال الضخام يقفون أمامها، يرتدون دروعًا وأسلحة بسيطة. كان المشرف على التسجيل يجلس خلف طاولة خشبية، ينظر إلى المتقدمين بنظرة باردة، وكأنه يقيّم فرص نجاتهم قبل حتى أن يدخلوا الساحة.

تقدم ونيس بثقة، بينما بقيت أسيل خلفه تراقب بخوف. وضع يده على الطاولة وقال:

ـ أريد التسجيل في المهرجان.

رفع المشرف عينيه ونظر إليه بتمعن قبل أن يسأله:

ـ أنت لست عبداً، لماذا ترغب في المشاركة؟

أجاب ونيس :

ـ أريد أن أختبر نفسي فقط... وربما أفوز.

ضحك الرجل بصوت خافت، ثم أشار إليه بيده قائلاً:

ـ حسنًا، اكتب اسمك هنا... ولكن تذكر، بمجرد أن تدخل الساحة، لا يمكنك الانسحاب. إما أن تفوز... أو تموت.

أخذ ونيس القلم البدائي المصنوع من ريشة، وكتب اسمه بيد ثابتة. عندما انتهى، دفع المشرف قطعة معدنية صغيرة نحوه وقال:

ـ خذ هذا، إنها علامة المشاركة، احتفظ بها، وستُستدعى عند بدء القتال.

أخذ ونيس العلامة والتفت إلى أسيل التي كانت تراقبه بقلق. حاول أن يبدو مطمئنًا وقال:

ـ لا تقلقي، سأكون بخير.

لكنها لم تبدُ مقتنعة، وعندما خرجا من الخيمة، همست له:

ـ ونيس، هؤلاء الأشخاص لا يمزحون، إنهم يقاتلون للبقاء، لا أريد أن أخسرك هنا.

توقف لحظة، ثم نظر في عينيها وقال بصوت هادئ لكن حازم:

ـ أسيل، نحن في أرض غريبة، وعلينا أن نجد مكانًا لنا هنا. إذا كان هذا هو السبيل لذلك، فسأخوضه حتى النهاية.

صمتت أسيل، لكنها أدركت أنه لن يتراجع. أمسك بيدها للحظة، ثم أكمل سيره، متجهًا نحو الساحة حيث ستُحدد مصايرهم في أرض الشتاء.

مع اقتراب غروب الشمس، بدأ الجو يبرد تدريجيًا، وانتشرت نيران المشاعل في أنحاء الساحة، تلقي بظلال راقصة على وجوه

المتفرجين المتحمسين. كانت الساحة دائرية، تحيط بها مدرجات حجرية امتلأت بأشخاص من مختلف الأعراق والأشكال، يصرخون بحماسة، متلهفين لرؤية الدماء تسيل في هذه الليلة القاتلة.

وقف ونيس عند بوابة الساحة، ممسكًا بالعلامة المعدنية التي حصل عليها، بينما قلبه ينبض بقوة. شعر بيد أسيل تلامس يده للحظة، فالتفت إليها، فرأى في عينيها قلقًا لم تستطع إخفاءه.

ـ لا زال بإمكانك التراجع، ونيس، لا أحد سيجبرك على القتال.

ابتسم ابتسامة خفيفة وقال بثقة:

ـ لكنني أجبرت نفسي، أسيل. هذه فرصتي لإثبات أنني قادر على النجاة... وعلى الفوز.

لم تستطع الرد، فقط عضّت شفتها وراقبته بصمت وهو يسير نحو البوابة، حيث وقف حارس ضخم يحمل رمحًا، نادى بصوت جهوري:

ـ المشاركون الجدد... إلى الداخل!

تحرك ونيس، وسط مجموعة من العبيد الذين كانوا يتهامسون بخوف. كان البعض يرتجف، والبعض الآخر يهمس لنفسه وكأنه يردد صلاة أخيرة. حين عبر البوابة، وجد نفسه في ممر حجري ضيق يقود مباشرة إلى قلب الساحة، حيث كانت الأرض مغطاة بالرمال الداكنة، وكأنها ارتوت بدماء من سبقوه.

وقف ونيس بين المشاركين، وعيناه تتجولان بين الوجوه المتوترة. لم يكن يعرف من سيكون خصمه الأول، لكنه كان يعلم شيئًا واحدًا... هذه الليلة لن تمر دون أن يثبت نفسه.

فجأة، دوي صوت الأبواق، وتبعتها طبول الحرب، ثم خرج رجل ضخم من المدرجات العلوية، يرتدي عباءة ثقيلة من الفرو، ووقف على منصة مرتفعة، رافعًا يديه بصوت قوي:

- أيها المتفرجون! مرحبًا بكم في مهرجان الحرية! الليلة، سيقاتل هؤلاء العبيد والمقاتلون من أجل فرصة للنجاة... ومن يبقى أخيرًا سينال الحرية والثراء!

تعالت الهتافات، بينما فتح الحراس البوابات الأخرى، ليخرج منها مقاتلون أكثر، كل منهم يحمل سلاحًا بدائيًا، لكنه يحمل أيضًا رغبة يائسة في النجاة.

تسارعت أنفاس ونيس، لكنه لم يتحرك، كان عليه أن يختار بحكمة متى يقاتل... ومتى يختبئ. ثم دوى صوت الجرس، معلنًا بداية القتال.

اندفع بعض العبيد نحو بعضهم البعض، بينما تراجع آخرون بخوف. نظر ونيس حوله، محاولًا تحليل الوضع... وعندها، لمح رجلاً ضخمًا يتقدم نحوه، ممسكًا بفأس عملاقة، وعيناه تلمعان بنية واضحة...القتال بدأ... وعليه الآن أن ينجو.

عندما رأى ونيس الرجل الضخم يتقدم نحوه، لم يشعر بالخوف، بل ركز عقله بالكامل على ذراعيه القويتين وسرعته في الحركة، لذا لم يكن عليه مواجهة خصمه مباشرة، بل استغلال تفوقه البدني بذكاء.

ثبت قدميه في الأرض، مستعدًا لأي هجوم. كان الرجل الضخم يلوح بفأسه الضخم، محاولًا توجيه ضربة ساحقة، لكن ونيس كان أسرع. انحنى بسرعة، متفاديًا الهجوم، ثم اندفع بخطوات خاطفة نحو الجانب، مستغلًا سرعته لتجنب المواجهة المباشرة.

رفع الرجل فأسه مجددًا محاولًا توجيه ضربة أخرى، لكن ونيس هذه المرة لم يبتعد فقط، بل استغل حركته للاندفاع نحو يد خصمه الممسكة بالفأس. بقبضة قوية، أمسك بذراعه وشدها بقوة، مستغلًا عضلاته القوية لإفقاده التوازن.

صرخ الرجل الضخم من الألم، لكن قبل أن يتمكن من المقاومة، وجه ونيس لكمة قوية إلى مرفقه، مما جعل قبضته على الفأس تضعف. لم يضيع ونيس الفرصة، فبسرعة خاطفة، سحب الفأس من يده ورمى به بعيدًا، ثم تراجع بخفة ليعيد التمركز.

وقف الرجل مذهولًا، غير مصدق أن سلاحه قد انتُزع منه بهذه السهولة. حاول الاندفاع نحو ونيس مستخدمًا قوته الجسدية،

لكن ونيس كان أسرع منه، قفز جانبًا بخطوات سريعة، ثم استدار ليجد نقطة ضعفه.

وفي لحظة خاطفة، قفز عاليًا، وضغط بكل قوته على ساقيه ليمنح لكمته القادمة قوة مضاعفة. وجه ضربة عنيفة إلى فك الرجل، مما جعله يترنح ويتراجع بضع خطوات، ثم سقط على ركبتيه، عاجزًا عن النهوض.

نظر إليه ونيس وهو يلهث، شعر بالأدرينالين يتدفق في جسده. لقد استخدم قوته في ذراعيه وسرعته في قدميه بذكاء، وتمكن من هزيمة خصمه دون الحاجة إلى سلاح. لكنه لم يكن الوحيد في الساحة... كان عليه أن يظل متيقظًا، لأن المزيد من المقاتلين كانوا يقتربون بالفعل.

نظر ونيس إلى خصمه الذي سقط على ركبتيه، ثم قال بصوت ثابت:

المعركة انتهت هنا... لم تعد خصمي.

لم يكن في نيته قتل رجل فقد قوته بالفعل، فاستدار ليبتعد عنه، لكن في تلك اللحظة، دوى صوت خطوات ثقيلة خلفه، خطوات سريعة وقوية. التفت بسرعة، لكن قبل أن يستوعب الموقف، رأى رجلًا ضخمًا يندفع نحوه كالثور الهائج، يرفع فأسًا ضخمًا في الهواء، وعيناه تشتعلان بعنف.

لم يكن أمام ونيس وقت للتفكير، فقط اعتمد على غريزته وسرعته. انحنى في اللحظة الأخيرة، متفاديًا الضربة القاتلة التي كادت أن تفصل رأسه عن جسده، ثم انطلق بحركة خاطفة تحت ذراع خصمه، مستغلًا سرعته ليبتعد عن مدى الهجوم.

لكن الرجل الضخم لم يتوقف، استدار بسرعة لا تتناسب مع حجمه، ولوّح بفأسه مجددًا، مستهدفًا رأس ونيس. هذه المرة لم يكن هناك مجال للمراوغة، كان عليه الهجوم.

ثبت ونيس قدميه في الأرض، ثم انطلق بقوة، مستخدمًا ساقيه للاندفاع كالسهم، وضغط بكل قوته على قبضته، مسددًا لكمة

قوية مباشرة إلى مرفق الرجل الضخم، مما جعل قبضته على الفأس تهتز للحظة. كانت هذه الفرصة التي احتاجها.

في جزء من الثانية، ضرب ونيس كوع خصمه بيده الأخرى بقوة مضاعفة، مما أجبره على إسقاط الفأس. لم يمنحه وقتًا للاستعادة، بل قفز عاليًا، وضغط بكل عضلاته في ذراعه، ثم سدد لكمة ساحقة إلى وجه الرجل، دفعت جسده الضخم إلى الخلف بقوة هائلة.

ترنح الرجل، عيناه متسعتان من الصدمة، ثم سقط بجسده الثقيل على الأرض، دون أن يتحرك.

تراجع ونيس خطوة للخلف، يلهث بشدة، ثم نظر إلى الجموع التي كانت تراقب القتال بصمت، قبل أن تنفجر الهتافات في الأرجاء.

لقد نجا... مرة أخرى. لكن هذه ليست النهاية. لا يزال هناك المزيد من المعارك، والمزيد من الأعداء الذين ينتظرون لحظة ضعفه.

وسط الساحة، وقف ونيس يلتقط أنفاسه، يحدق في الرجل الذي كان خصمه، وهو يترنح قبل أن يسقط على الأرض بلا حراك. لم يكن لديه وقت ليحتفل أو يستريح، فقد كانت المعركة لا تزال مشتعلة من حوله. أصوات الحديد المتصادم، والصرخات الممتزجة بالهتافات، والدماء التي تغطي الرمال... كلها كانت جزءًا من هذا الجحيم.

لكن فجأة، وسط كل هذا الضجيج، اخترق أذنه صوتٌ واحد فقط...

صرخة أسيل.

كان صوتها حادًا، يائسًا، مليئًا بالخوف والألم، مما جعله يتجمد في مكانه للحظة. التفت بسرعة، وعيناه تبحثان عنها بين الجموع، لكن قبل أن يتمكن من تحديد مصدر الصوت، ساد الصمت فجأة. لم يكن هناك صراخ بعد الآن.

شعر بقلبه ينبض بقوة، وكأن شيئًا ما بداخله يخبره أن هناك خطرًا لم يدركه بعد. لم يتردد، بل اندفع خارج الساحة، متجاهلًا

القتال الدائر حوله، متجاهلًا نظرات المتفرجين الذين لم يفهموا سبب اندفاعه المفاجئ. كان كل ما يريده هو الوصول إليها.

ركض بأقصى سرعته، متخطيًا الجثث والدماء المنتشرة في كل مكان، حتى وصل، حيث رأى جسدًا ملقى على الأرض، بلا حراك.

توقفت قدماه عن الحركة، وكأن الأرض سحبت كل قوته. عيناه توسعتا، وقلبه بدأ ينبض ببطء مؤلم.

كانت أسيل...

ركع بجانبها، يمد يده المرتجفة نحوها، لكنه لم يشعر بحرارة جسدها المعتادة. كانت باردة... باردة جدًا. كانت هناك جروح عميقة تغطي جسدها، وقطرات الدم ما زالت تتساقط من رقبتها.

حاول أن يقول شيئًا، أن ينادي اسمها، أن يوقظها، لكن الكلمات لم تخرج. فقط نظر إليها، والدموع تجمعت في عينيه، بينما شعور ثقيل بالخسارة اجتاح كيانه بالكامل.

لم يعد هناك أي أصوات حوله، لا صرخات ولا هتافات، فقط صمت ثقيل يحيط به... وكأن العالم كله توقف عند هذه اللحظة.

قبض على يده بقوة، وأغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما مجددًا، ولكن هذه المرة، لم يكن ونيس نفسه.

كان هناك شيء آخر قد استيقظ بداخله... شيء لم يكن موجودًا من قبل.

ظل ونيس راكعًا بجانب جسد أسيل، يحدق في ملامحها الباردة وكأنها مجرد حلم سيختفي لو رمش بعينيه. لكنه لم يكن حلمًا... كانت الحقيقة، حقيقة قاسية لا يستطيع تغييرها.

قبض على يده بقوة حتى تشقق جلده، وأسنانه تطحن بعضها من الغضب والقهر. بدأ جسده يرتجف، ليس من الخوف... بل من النار التي اشتعلت في داخله.

رفع رأسه ببطء، وعيناه تجولان في المكان، يبحث عن المسؤول، عن اليد التي امتدت إلى أسيل وأخذتها منه. لم يكن بحاجة إلى

دليل، فقد رأى أثر أقدام طازجة في التراب، تسحب نفسها بعيدًا، وكأن القاتل كان يراقب المشهد، ثم قرر الاختفاء.

وقف ونيس ببطء، كل عضلة في جسده مشدودة، وكل نفس يخرج منه محمل بالغضب. لم يعد يسمع شيئًا... لم يعد يرى شيئًا سوى أثر تلك الخطوات.

رفع ونيس جسد أسيل عن الأرض، حملها بين ذراعيه كما لو كانت مجرد ورقة خفيفة حملتها الرياح، ثم انتقل بسرعة إلى مكان مختلف، بعيدًا عن الضوضاء، عن الدمار، عن كل شيء. اختار تلًّا مرتفعًا، حيث تقف شجرة وحيدة، أغصانها تمتد كأنها تحاول احتضان السماء. هناك، وضعها بهدوء فوق العشب، بينما الرياح تهب برفق، تحرك خصلات شعرها المتناثرة على وجهها الباهت.

نظر إليها مطولًا، وكأن عينيه ترفض تصديق ما تراه. الدماء لا تزال تتدفق ببطء، تلوّن ثوبها الأبيض بلون الحياة الذي غادرها،

بينما نبضها بقي صامتًا... إلى الأبد. شعر بوخزة في صدره، كأنما شيء ما بداخله يُنتزع، ينهار دون صوت.

جلس بجانبها، يمد يده ببطء ليمسح بقعة دم عالقة على وجنتها، تلك الوجنة التي طالما احمرّت خجلًا أمامه، وتوردت حين كانت تضحك. لامسها بأطراف أصابعه، وكأنه يحاول إيقاظها، إعادتها للحياة بلمسته، لكن لا شيء تغير. بقيت ملامحها هادئة، وكأنها غارقة في حلم بعيد... حلم لن تستيقظ منه أبدًا.

رفع رأسه إلى السماء، كانت غائمة، مظلمة، وكأنها تعكس ما بداخله. لم يكن هناك نجوم، لم يكن هناك ضوء... تمامًا كما كان يشعر الآن. مرر يده على جبينه، شعر بحرارته، ثم أنزلها ببطء ليقبض على العشب بجانبه بقوة، كأنه يبحث عن شيء يمسكه، شيء يمنعه من الانهيار. لكنه لم يجد سوى الفراغ.

همس بصوت بالكاد يُسمع:

"أسيل..."

لم يكن يتوقع أن تجيب، لكنه نطق باسمها على أي حال، ربما ليقنع نفسه أنها ما زالت هنا، أنها يمكن أن تفتح عينيها في أي لحظة، أن تنظر إليه وتبتسم كما كانت تفعل دائمًا. لكن الصمت كان جوابه الوحيد.

ابتلع ريقه بصعوبة، وأخفض رأسه، ينظر إليها مجددًا، يتأمل تفاصيل وجهها، كما لو كان يحاول حفظها في ذاكرته للأبد. رموشها الطويلة، شفتيها اللتين لطالما شكلتا كلمات لم ينطقها أحد سواها، أنفاسها... لكنه أدرك فجأة أنها لم تكن تتنفس. لم تكن هنا. لم تكن معه.

مرر أصابعه فوق عشب الأرض الجاف، وشعر بخشونته تحت أنامله المرتجفة. لم يكن يريد أن يتركها هنا، وحيدة تحت هذه السماء المظلمة، لكن لم يكن هناك خيار آخر. أغمض عينيه للحظة، يحاول جمع قوته، ثم بدأ يحفر الأرض بيديه. لم يهتم بألم أصابعه، أو بحرارة الدموع التي انسابت بصمت على وجنتيه، كل ما كان يهمه الآن هو أن يمنحها الراحة، ولو بعد فوات الأوان.

حفر ببطء، بحذر، وكأنه يخشى أن يجرحها حتى بعد رحيلها. وحين أصبح القبر عميقًا بما يكفي، التقط جسدها برفق، وكأنه ما زال يخشى أن يؤلمها، ثم وضعها داخله بهدوء. للحظة، تردد، بقي ينظر إليها، يحاول أن يودعها بنظراته قبل أن تغيب عن عينيه للأبد.

مد يده إلى جيبها، وأخرج الناي الذي عزفت عليه تلك الليلة، عندما جلسا مع عازف الكمان يستمعان للحن الحياة البسيط، يتحدثان عن أشياء صغيرة لم يدركا أهميتها حتى فُقدت. وضعه بجانبها داخل القبر.

أخذ نفسًا مرتجفًا، ثم بدأ بتغطية جسدها بالتراب، يداه تتحركان ببطء، كأنه يعتذر لها مع كل حفنة يسقطها فوقها. وحين انتهى، بقي جالسًا هناك، يراقب القبر بصمت، وكأنه لا يزال يأمل أن يحدث المستحيل، أن تنهض فجأة وتخبره أنها هنا، أنها لم ترحل.

لكن الرياح وحدها كانت تجيبه، تحرك أوراق الشجرة بلحن حزين.

أغلق عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن ينهض بصمت. نظر إلى القبر للمرة الأخيرة، أراد أن يقول شيئًا، أن يهمس باسمها مرة أخرى، لكنه لم يستطع. استدار ببطء، وبدأ في السير بعيدًا.

كانت خطواته ثقيلة، وكأن الأرض تحاول منعه من الرحيل، وكأنها تطالبه بالبقاء، لكنه لم يتوقف.

رحل...

لنفس المكان الذي وجدها فيه علي الارض، ثم، بدون تفكير، بدأ يتحرك. لم يكن يركض... كان يسير بخطوات ثابتة، خطى شخص لم يعد لديه ما يخسره.

كل خطوة كان يأخذها كانت تقوده نحو الشخص الذي فعلها، نحو المجرم الذي سرق منه أثمن شيء امتلكه في هذه الأرض القاسية.

لم يكن ونيس في هذه اللحظة مجرد مقاتل في مهرجان عبثي...

عاد ونيس إلى ساحة القتال، ووجهه خالٍ من أي تعبير. كان كمن فقد روحه، أو كأن شيئًا مظلمًا حل مكانها. لم يكن يعلم من قتل أسيل، لكنه لم يهتم، فقد قرر أن يقتلهم جميعًا.

دخل الساحة مجددًا، خطواته بطيئة لكن ثابتة، وعيناه تراقبان كل من تبقى من المقاتلين. البعض كان لا يزال منشغلًا بمعاركه، والبعض لاحظ عودته وحدّق فيه بحذر، وكأنهم شعرو بتعطشه لدم.

لم يمنحهم الوقت للتفكير، انطلق كالعاصفة.

ركل أحدهم بقوة جعلته يطير في الهواء قبل أن يسقط على الأرض بلا حراك. ثم التفت نحو آخر، قبض على عنقه، ورفعه عن الأرض، قبل أن يسحقه بقوة أسقطته ميتًا. لم يكن يتحرك كإنسان، بل كوحش مفترس، يقتل دون تردد، دون رحمة.

الدماء تناثرت على ملابسه، يديه، وجهه... لكنه لم يشعر بها، لم يهتم.

ظل يقاتل، يسقط واحدًا تلو الآخر، حتى لم يتبقَ أمامه سوى رجل واحد. كان هذا الأخير ينظر إليه برعب، يلهث بشدة، وعيناه لا تفارق الدماء التي تقطر من يدي ونيس.

رفع ونيس عينة، مستعدًا لتوجيه الضربة الأخيرة، لكنه توقف فجأة.

رأى الدم على يديه.

ظل يحدق فيه للحظات، وعقله بدأ يتشوش. شيء ما في داخله اهتز، وكأن هذا المشهد أيقظ شيئًا مدفونًا بداخله. ثم... بدأت الذكريات تتدفق.

تذكر تلك الليلة، عندما كانت تعزف مع صاحب الكمان على الناي. كان اللحن حزينًا، لكنه كان يعبر عنهما... عن الرحلة التي بدأت بينهما رغم قصرها.

تذكر كيف كانت تفهمه دون أن يتحدث، كيف كانت نظراتها تكفي لتجعله يشعر بأنه ليس وحيدًا، بأنها كانت ترى ما خلف صمته، ما خلف قوته الظاهرة.

ثم... تذكر كلماتها الأخيرة.

"ونيس، هؤلاء الأشخاص لا يمزحون، إنهم يقاتلون للبقاء، لا أريد أن أخسرك هنا."

تجمد في مكانه، وعيناه امتلأتا بالدموع. قبض على يديه بقوة، لكنه لم يعد يشعر بالغضب، بل شعر بفراغ هائل يبتلعه.

أسقط على الأرض، وركع على ركبتيه، بينما صوت الجماهير من حوله بدأ يتلاشى. لم يعد يسمع شيئًا سوى صوت الناي... صوت الذكرى الأخيرة التي تركتها له.

كانت أسيل قد رحلت، ولن يعيدها أي انتقام.

رفع رأسه نحو السماء الملبدة بالغيوم، وأغلق عينيه... لم يكن يعلم ما الذي سيفعله بعد الآن. كل ما يعرفه هو أنه خسر الشيء الوحيد الذي جعله يشعر بأنه على قيد الحياة.

ظل ونيس راكعًا وسط الساحة، يحدق في الدماء التي تغطي يديه، بينما عقله غارق في الذكريات. صرخات الجماهير، أصوات

الحديد المتصادم، ورائحة الدم التي تملأ المكان... كل شيء بدأ يتلاشى من حوله. لم يعد يرى سوى صورتها، لم يعد يسمع سوى صوتها وهي تحذره، وهي تخاف عليه، وهي تتمنى أن يبقى حيًا.

أرخى قبضته، وسقط على الأرض بصوت خافت، لكنه كان أشبه بصدى قرار لا رجعة فيه. رفع رأسه قليلًا، ونظر إلى الرجل الواقف أمامه، آخر مقاتل تبقى في الحلبة. لم يكن هناك خوف في عينيه، ولا حتى غضب... فقط فراغ قاتل، وكأن كل شيء فقد معناه.

أخذ خطوة للخلف، ثم أخرى... رفع يده قليلًا، في إشارة واضحة.

لقد استسلم...

ساد الصمت للحظات، قبل أن تنفجر الساحة بالهتافات. الجماهير لم تصدق ما تراه، ونيس، المقاتل الذي بدا وكأنه لا يُهزم، ينسحب فجأة؟ البعض صرخ بغضب، والبعض هتف باسم الفائز الجديد، لكن ونيس لم يكن يستمع لأي منهم.

وقف الفائز مكانه، يراقب ونيس وهو يستدير ببطء، ثم يبدأ في المشي خارج الساحة. لم يقل كلمة واحدة، لم ينظر خلفه، ولم يتوقف حتى للحظة.

مشيتُه كانت بطيئة، لكنها ثابتة، وكأن شيئًا داخله قد تحطم، لكنه لم يسقط... لم يسمح لنفسه بالسقوط.

ترك خلفه الهتافات، ترك خلفه الدماء، ترك خلفه المعركة بأكملها... لكنه لم يستطع أن يترك ما خسره حقًا.

بعد أن غادر ساحة القتال، كان ونيس يسير بلا وجهة، قدماه تقودانه دون وعي، بينما عقله يطارد ذكرى واحدة فقط: أسيل.

لم يكن يعلم إلى أين يذهب، ولم يكن يريد أن يعرف. كان العالم حوله يتحرك، لكن داخله كان ساكنًا، وكأن الزمن توقف عند تلك اللحظة... عند شجرة التي دفنت فيها أسيل ، عند نظرتها الأخيرة التي لم يستطع نسيانها.

مرت الساعات وهو واقف اما تلك الشجرة، لم يكن يشعر بالتعب، لم يكن يشعر بأي شيء. كل ما كان يدور في ذهنه سؤال واحد فقط:

"لماذا؟"

لماذا لم يكن هو من مات بدلًا منها؟ لماذا أخذوها هي؟ ما ذنبها في كل هذا؟ لماذا لم يتمكن من إنقاذها؟

ظل واقف امام قبرها ... لم يكن يرى الأضواء ولا يسمع الضجيج، كان يرى فقط عند حملها وهي مغطاء بالدماء ، وكان يسمع فقط صوتها الذي أصبح ذكرى بعيدة.

جلس اخيرا بجانب قبرها ممسك بتربتها، وضع رأسه بين يديه، وأغمض عينيه بقوة، وكأنه يحاول الهروب من واقعه... لكنه لم يستطع.

لا هروب من هذا الألم.

لا هروب من هذا الفراغ الذي تركته أسيل خلفها.

لم يكن يدري كم مر من الوقت، لكنه شعر فجأة بظل يقف خلفه. لم يلتفت، لم يكن مهتمًا بمن يكون، حتى سمع صوتًا خافتًا، صوت رجل كبير في السن:

تردد الصوت العجوز خلفه، هادئًا، كأنه خرج من ظلام الماضي نفسه.

"هل تحب هذا المكان أم ماذا؟"

لم يتحرك ونيس، لم يرفع رأسه، لم يبدُ عليه حتى أنه سمع السؤال. لكن بعد لحظة، همس بصوت مبحوح، صوت لم يعد يشبهه:

"لا."

جلس العجوز بجانبه بصمت، لم يسأل شيئًا، لم يحاول كسر الجدار الذي أحاط ونيس نفسه به، بل انتظر، كأنه يعلم أن الكلمات ستخرج في النهاية.

مرت لحظات طويلة، والريح تهب ببطء، تحرك العشب من حولهم، وكأن الأرض نفسها تستمع لثقل الحزن الذي يحيط به.

وأخيرًا، كسر ونيس الصمت بصوت متهدج:

"لقد ماتت."

لم يكن بحاجة ليقول اسمها، لم يكن بحاجة لشرح من هي...

كان من الواضح من نبرة صوته أنها كانت كل شيء بالنسبة له.

أغمض عينيه، وكأن ذلك المشهد الملعون عاد ليطارده مجددًا.

رأى أسيل هناك، وسط ساحة المعركة، كيف التفت عندما سمع صرختها، كيف ركض بجنون، كيف رأى الدماء تغمر الأرض تحتها.

"كنت قريبًا جدًا..."

همس وهو يشد قبضتيه حتى أبيضّت مفاصله، تنفّسه بات متقطعًا، وكأنه لم يعد قادرًا على تحمل وزنه.

"كان بإمكاني إنقاذها... كان يمكنني الوصول إليها في الوقت المناسب أن لم اشارك في تلك الساحة العينة... لكنها كانت هناك، مستلقية، باردة، صامتة..."

رفع يديه أمامه، وكأن الدم لا يزال يلطخ راحتيه، وكأن جسدها لا يزال بين ذراعيه، ثقيلًا بطريقة لم يشعر بها من قبل.

"حاولت أن أناديها... حاولت أن أخبرها أن تبقى معي، لكنها لم تسمعني."

ضحك بصوت مكسور، ضحكة لا تحمل أي سعادة، بل كانت أشبه بانهيار روح تحطمت بالكامل.

"كانت دائمًا تفهمني دون أن أتكلم... لكنها لم تفهم أنني لا أستطيع العيش بدونها."

نظر إلى الأرض، عيناه فارغتان كأن روحه خرجت مع روحها. ثم همس بصوت بالكاد يُسمع:

"في آخر مرة تحدثنا... قالت لي: 'ونيس، هؤلاء الأشخاص لا يمزحون، إنهم يقاتلون للبقاء، لا أريد أن أخسرك هنا.'"

ابتلع غصته، وكأن الكلمات كانت خنجرًا يغوص في صدره. ثم أضاف، وكأنه يتحدث لنفسه أكثر من أي شخص آخر:

"وفي النهاية... خسرتُها أنا."

لم يجب العجوز، لم يكن هناك كلمات تكفي لمواساة شخص غرق في بحر من الألم لا قاع له. لكنه بعد لحظة، تنهد وقال بهدوء:

- الحزن... يجعلنا نعتقد أن من نحبهم يرحلون تمامًا. لكن الحقيقة أنهم لا يزالون هنا، في الكلمات التي قالوها، في الذكريات التي تركوها، في الأماكن التي أحبّوها.

نظر إليه ونيس أخيرًا، عينيه مثقلتان بالدموع التي لم تسقط. ثم همس بمرارة:

"لكنها ليست هنا."

وقف ببطء، كأن جسده أصبح أثقل من أن يحمله، وأدار ظهره للعجوز، ثم بدأ في السير بعيدًا، لا يعلم إلى أين، لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا فقط...

هذا العالم، بدون أسيل، لم يعد يعني له شيئًا.

نظر الرجل العجوز إلى ونيس بصمت، كأنه كان يرى في عينيه ظل روح أُنهِكت قبل أوانها. لم يحاول مواساته أكثر، ولم يحاول منحه كلمات لا فائدة منها.

تنهد العجوز، ثم قال بصوت هادئ، متعب كأنه يحمل معه سنوات طويلة من الحزن:

"أنا آسف..."

كانت كلماته صادقة، لكنها لم تكن كافية. لا شيء سيكون كافيًا.

استدار ليغادر، وقبل أن يبتعد تمامًا، توقف للحظة وقال دون أن يلتفت:

"ليس كل من يذهب أو يموت نبكي عليه... فنحن جميعًا، في نهاية المطاف، مجرد وقت، ومهما بقينا، سنصبح مثلهم."

ثم مضى في طريقه، تاركًا ونيس وحده مرة أخرى.

وقف ونيس مكانه، لم يتحرك، لم يقل شيئًا، فقط نظر إلى الأفق البعيد، كأن كلماته الأخيرة فتحت جرحًا أعمق مما كان موجودًا بالفعل.

غادر ونيس قبر أسيل بعد أن رحل الرجل العجوز بوقت قصير. كان صمته أثقل من أي كلمات، وعيناه لا تحملان سوى الفراغ. سار ببطء، كأن قدميه بالكاد تحملانه، متجهًا نحو بوابة "أرض الشتاء"، المكان الذي لم يعد يريد البقاء فيه لحظة أخرى.

عندما وصل إلى هناك، توقف.

البوابة كانت مغلقة....

بينما كان ونيس يسير ببطء، غارقًا في أفكاره الثقيلة، ظهر أمامه نفس الحارسين اللذين قابلهما أول مرة مع أسيل. وقفا بثبات، يراقبانه بصمت للحظات قبل أن يسأل أحدهما:

- لماذا أنت هنا؟ أراك وحيدًا.

توقف ونيس، رفع رأسه لينظر إليهما بعينين يملؤهما الحزن، ثم أجاب بصوت خافت، وكأن الكلمات تثقل عليه:

- لقد رحلت... مع الأسف. وبقيت وحدي.

أخفض نظره للحظة، كأنما يسترجع ذكرى بعيدة، ثم تابع:

- قالت لي إنهم يقاتلون للبقاء، لكنها لم تبقَ... لم أستمع لها، دخلتُ إليهم، وكان نصيبها الموت بدلاً عني.

ساد الصمت بين الثلاثة للحظات، قبل أن يتنهد أحد الحارسين ويقول بصوت هادئ:

- أعتذر على سؤالي... لكني لا أستطيع مخالفة القوانين لأجلك. الدخول والخروج ممنوعان في غير الأوقات المحددة.

نظر إليه ونيس دون أن يرد، لم يكن يبحث عن طريق للخروج أو الدخول، لم يكن يبحث عن شيء أصلًا... سوى مكان يستريح فيه حزنه.

تابع الحارس بنبرة أكثر لطفًا:

- لكن... حاول أن تغيّر من نفسك بدل أن تبقى غارقًا في الحزن.

ابتسم ونيس بسخرية مريرة، وكأن الكلمات لم تصل إليه، أو ربما لم تعد تعني له شيئًا. لكنه لم يقل شيئًا. فقط أومأ برأسه قليلًا، ثم استدار، وأكمل سيره نحو المجهول.

واصل ونيس السير بلا هدف، خطواته بطيئة، ثقيلة، وكأنها تحمل أعباء العالم فوقها. الشوارع كانت صامتة إلا من همسات الرياح التي تلامس جدران المباني القديمة. لم يكن يعلم إلى أين يذهب، لكنه استمر في المشي، كما لو كان الهروب من التفكير هو غايته الوحيدة.

بعد وقت لم يستطع تقديره، وجد نفسه عند أطراف المدينة، وهناك، وسط الأزقة الضيقة، لمح وجهًا مألوفًا.

كان الرجل الذي واجهه في الحلبة... الرجل الذي تركه يفوز. لم يكن يتوقع رؤيته مجددًا، لكن الرجل نظر إليه بنظرة تفحص، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يعقد ذراعيه.

- لم أتوقع أن أراك هنا بعد كل ما حدث، قال الرجل بصوت هادئ.

رفع ونيس عينيه إليه، لم يكن متأكدًا مما ينبغي أن يقوله، لكن الرجل لم ينتظر إجابة، بل أكمل وهو يشير إلى مبنى حجري صغير خلفه:

- حصلت على هذا المنزل بعد أن نلتُ حريتي... والآن أعيش فيه وحدي.

صمت للحظة، ثم نظر إلى ونيس مباشرة وأضاف:

- إن كنت بحاجة إلى مكان تبقى فيه... يمكنك البقاء معي.

نظر ونيس إلى المنزل للحظات، لم يكن كبيرًا، لكنه بدا دافئًا، وكأنه قطعة من الحياة الطبيعية وسط كل ما مر به. كان يمكنه أن يرفض، أن يستمر في التيه بلا هدف، لكن في داخله كان يعلم أنه بحاجة إلى شيء...

تنهد ببطء، ثم رفع رأسه ونظر إلى الرجل، وأومأ بهدوء.

- شكرًا... سأقبل عرضك الي ان اغادر.

ابتسم الرجل، ثم دفع باب المنزل، مشيرًا له بالدخول، بينما تبعه ونيس بصمت، غير مدرك أن هذه الليلة قد تكون بداية جديدة لم يكن يتوقعها.

توقف ونيس للحظة، ينظر إلى الرجل الذي فتح له منزله وقلبه، ثم حرك رأسه بصمت وكأن الكلمات لم تعد تكفي.

مرت أيام كثيرة، والرجل كان يذهب كل صباح إلى عمله، بينما ونيس يبقى في الغرفة، على نفس الفراش، لا يتحرك كثيرًا، لا يأكل إلا قليلاً، ولا يتحدث. كانت عيناه ثابتتين على سقف الغرفة، يلاحق فيه ظلال الذكريات. كل شيء بدا ثقيلاً، حتى الهواء.

الرجل حاول ان يكلمه مرارًا، يقنعه يخرج يغير موده الكئيب لكن ونيس لم يكن هنا، كان جسده فقط هو الحاضر. أما قلبه، فعالق عند قبر أسيل.

وذات صباح، استيقظ الرجل ولم يجد ونيس. ترك له رسالة قصيرة على الطاولة:

"أظنني أثقلت عليك... شكرًا لأنك منحتني وقتًا للهدوء. سأكمل الرحلة وحدي."

خرج ونيس من البلدة، متجهًا إلى المجهول، يحمل في صدره كل ما تبقّى من ذكراها. كانت الأرض مكسوة بالثلج، والبرد يلسع أطرافه، لكنه لم يشعر بشيء. كان يسير دون هدف، فقط رغبة عميقة في أن يبتعد... عن كل شيء.

مر بقبر أسيل قبل أن يغادر، وقف أمامه طويلًا، انحنى بهدوء، ووضع شيئًا صغيرًا فوق القبر. كان الناي الذي لم يعد له لحن.

همس: "سامحيني، لم أكن كما يجب... لكنني سأكمل، لا أعرف كيف، ولا إلى أين... فقط سأمشي، وأسير في المكان الذي لم نصل إليه سويًا."

ثم رحل.

مرت أيام، وربما أسابيع، لا يعرف كم. في إحدى الليالي الباردة، كان جالسًا قرب نار صغيرة حاول إشعالها، لكن يديه كانت ترتجفان. رفع رأسه ليتفاجأ... ظل رقيق يقف أمامه.

شعرها كان كما هو، ووجهها ساكن كما كان دائمًا، تنظر إليه بعينيها الواسعتين.

وقف فجأة، يتنفس بصعوبة، عينيه تلمع من الدهشة والدموع:

"أسيل؟"

لكن لا أحد أجابه. لا صوت. لا حركة. فقط صورتها، واقفة هناك، تبتسم له. ثم اختفت فجأة.

لم يصدق ما رآه، ذهب بتجاه الظل يبحث حوله، يناديها، لكن لا أحد هنا. جلس مجددًا، قلبه يخفق بشدة، ثم همس لنفسه:

- إنها في رأسي فقط... أعرف، لكنها لا تزال حيّة بداخلي."

من هذه اللحظة، بدأ يسمع صوتها أحيانًا، يراها في الظلال، يراها تمشي بجانبه... لم تعد حقيقته خالية منها، صارت جزءًا من رحلته، وإن كانت مجرد وهم.

لكن ونيس كان يعلم..

أن الوهم أحيانًا، هو الشيء الوحيد الذي يُبقي الإنسان على قيد الحياة.

دخل ونيس إلى المنزل بخطوات مترددة، كانت الغرفة الأولى صغيرة ولكنها مرتبة، يضيئها مصباح زيتي قديم، وأثاثها بسيط لكنه يبعث على الراحة. أشار الرجل إلى طاولة خشبية في المنتصف، ثم قال وهو يسير نحو زاوية المطبخ:

- اجلس، سأحضر بعض الطعام. يبدو أنك لم تأكل منذ فترة.

لم يكن ونيس يشعر بالجوع، لكنه جلس بصمت، متأملًا المكان حوله. الجدران كانت تحمل الوان كثيرا، لكنها لم تكن موحشة.

عاد الرجل بعد لحظات حاملاً طبقين من الطعام، وضع أحدهما أمام ونيس، ثم جلس مقابله، يراقبه بعينين مليئتين بالفضول.

- لم تخبرني... ماذا حدث لك بعد الحلبة؟

نظر إليه ونيس قليلًا، ثم أنزل رأسه، ومرر أصابعه فوق حافة الطبق دون أن يأكل. أخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يحاول جمع شتات نفسه، ثم قال بصوت خافت:

- خسرت... شخصًا عزيزًا.

لم يسأل الرجل المزيد، فقط أومأ بصمت، وكأنه فهم كل شيء. ثم تناول ملعقته وبدأ يأكل بهدوء، وكأنه يمنح ونيس مساحة ليتحدث متى أراد.

بعد دقائق من الصمت، رفع ونيس عينيه وبدأ يحكي للرجل عن أسيل، وعن كل ما حدث، وكيف غادر الحلبة، وما الذي وجده بعد ذلك. كان صوته هادئًا، مليئًا بالمرارة، وكأنه يروي قصة شخص آخر، لا قصته.

لكن بينما كان يتحدث، نظر لا إراديًا نحو الكرسي الذي بجانبه... فجأة، اتسعت عيناه، وصمت تمامًا. لم يستطع إكمال حديثه، وكأن الكلمات علقت في حلقه.

شعر بثقل غريب في صدره، وضع يده على قلبه، ونبضاته باتت مسموعة بوضوح. نظر إليه الرجل بقلق عندما رأى الخوف في عينيه، ثم سأله بسرعة:

- ونيس... ما الذي جرى؟

لكن ونيس لم يجبه، فقط ظل يحدق في الكرسي الفارغ، وكأنه رأى شيئًا لا يستطيع استيعابه.

- وني...

قبل أن يكمل الرجل جملته، سقط ونيس على الأرض، ممسكًا بصدره، يهمس بصوت خافت، يكاد لا يُسمع:

- أسيل... أسيل... أسيل...

حتى غاب عن الوعي.

نظر الرجل إلى ونيس وهو ساقط على الأرض، أنفاسه متقطعة، ويداه لا تزالان ممسكتين بصدره. لم يفهم ما يحدث، لكنه ركع بسرعة بجانبه، وهزّه بلطف وهو يناديه:

- ونيس! استيقظ! ما الذي يحدث لك؟

لكن ونيس لم يرد، كان جسده باردًا ونبضه غير منتظم. للحظة، خاف الرجل أن يكون قد فقده، لكنه شعر بنبضه الخافت، فأدرك أنه لا يزال على قيد الحياة.

نهض بسرعة، أخذ وعاءً من الماء البارد، وسكب بعضه على وجه ونيس، ثم حاول رفع رأسه قليلاً. لم تمضِ سوى لحظات حتى أخذ ونيس نفسًا عميقًا، ثم شهق كأنه عاد من مكان بعيد.

فتح عينيه ببطء، كانت الرؤية مشوشة أمامه، لكنه رأى وجه الرجل القلق وهو يحدق به. حاول التحرك لكنه شعر بضعف شديد، وكأن جسده بالكامل قد خذله.

- ونيس... ما الذي رأيته؟ ما الذي جعلك تفزع بهذا الشكل؟

ظل ونيس صامتًا للحظات، ثم نظر نحو الكرسي الفارغ مجددًا، وعيناه ما زالتا تحملان أثر الخوف الذي لم يزل بعد. بصوت خافت، وكأنه يتحدث لنفسه، قال:

- لقد رأيتها...

قطب الرجل حاجبيه، لم يفهم تمامًا، لكنه لم يقاطع ونيس، الذي تابع بصوت مرتجف:

- أسيل... كانت تجلس هناك، تنظر إليّ... لكنها لم تقل شيئًا. فقط حدقت بي... ثم اختفت.

لم يعرف الرجل ما يقوله، لكنه شعر بقشعريرة تسري في جسده. لم يكن ونيس يبدو كمن يتخيل، بل كمن رأى شيئًا حقيقيًا، شيئًا لا يستطيع تفسيره.

تنفس ونيس بعمق، مسح على وجهه، ثم نهض ببطء بمساعدة الرجل، لكنه لم يرفع عينيه عن الكرسي الفارغ. كان يعلم أن ما رآه لم يكن وهمًا... كان شيئًا أكثر من ذلك، شيئًا لا يستطيع تفسيره بعد.

جلس ونيس على الكرسي ببطء، ما زالت أنفاسه غير منتظمة، ويداه ترتجفان قليلاً. أما الرجل، فبقي يراقبه بصمت، لا يعرف ما إن كان عليه تصديق ما سمعه أم لا.

بعد لحظات من الصمت، التفت ونيس إليه وقال بصوت منخفض:

- هل تؤمن أن الأرواح قد تعود للحظة... فقط لتخبرنا بشيء لم نفهمه بعد؟

نظر إليه الرجل بتمعن، ثم قال بتردد:

- لا أعلم... لكن ما رأيته جعلني أصدق أنك رأيت شيئًا حقيقيًا. وجهك كان شاحبًا كما لو أنك نظرت إلى الموت نفسه.

ابتسم ونيس ابتسامة باهتة، وكأنه يسخر من نفسه، ثم مرر يده على جبينه، وكأن الصداع بدأ ينهكه.

- لا أعلم إن كان ما رأيته حقيقيًا، أم أنه مجرد وهم صنعه حزني... لكني شعرت بها هنا، بجانبي، كما كانت دائمًا. كانت تنظر إليّ، وكأنها تريد أن تقول شيئًا... لكنني لم أسمع صوتها.

نظر إلى الكرسي مرة أخرى، لكنه هذه المرة لم يجد شيئًا سوى الفراغ المعتاد. تنهد بعمق، ثم أغمض عينيه للحظات.

- ربما عليّ أن أتركها ترحل... ربما عليّ أن أقبل بأنها لم تعد هنا.

اقترب الرجل منه، وضع يده على كتفه بلطف وقال:

- الموت لا يأخذ فقط من نحبهم... بل يترك فينا جروحًا لا تلتئم بسهولة. لكن لا تجعل حزنك يبتلعك. إذا كانت تحبك كما تحبها، فلن ترضى بأن تعيش أسيرًا لذكراها.

رفع ونيس عينيه إليه، للحظة بدا وكأنه يبحث عن معنى في كلماته، لكنه لم يجد إجابة.

وقف بصمت، سار نحو النافذة المطلة على المدينة، تأمل الأضواء الخافتة في الشوارع، وكأنها تذكره بنجوم السماء التي غابت عنه في تلك الليلة.

- لا أعلم إلى أين سأذهب بعد الآن... لكنني لم أعد الشخص نفسه الذي دخل هذه المدينة لأول مرة.

وقف الرجل بجانبه، ثم ابتسم وقال:

- لا يهم أين ستذهب، يمكنك الجلوس معي. كان من الممكن أن تكون مكاني لولا ما حدث. لو كنت قد قضيت علي في ذلك الوقت، لما كنتُ واقفًا معك الآن. لكنني أعتقد أن ما جعلك تسيطر على الوضع هو أنك متحول.

توقف للحظة، ثم أكمل بنبرة مترددة:

- لكن كيف؟ كنت أظن أن المتحولين عديمو القلب والمشاعر... لكنني أعتقد أنني غيرت تفكيري عندما رأيتك.

توقف ونيس للحظة، ينظر إلى الرجل الذي فتح له منزله وقلبه، ثم حرك رأسه بصمت وكأن الكلمات لم تعد تكفي.

مرت أيام كثيرة، والرجل كان يذهب كل صباح إلى عمله، بينما ونيس يبقى في الغرفة، على نفس الفراش، لا يتحرك كثيرًا، لا يأكل إلا قليلاً، ولا يتحدث. كانت عيناه ثابتتين على سقف الغرفة، يلاحق فيه ظلال الذكريات. كل شيء بدا ثقيلاً، حتى الهواء.

حاولا رجل في تغير موده او حتي يسعده قليلا... لكن ونيس لم يكن هنا، كان جسده فقط هو الحاضر. أما قلبه، فعالق عند قبر أسيل.

وذات صباح، استيقظ الرجل ولم يجد ونيس. ترك له رسالة قصيرة على الطاولة:

"أظنني أثقلت عليك... شكرًا لأنك منحتني وقتًا للهدوء. سأكمل الرحلة وحدي."

خرج ونيس من البلدة، متجهًا إلى المجهول، يحمل في صدره كل ما تبقّى من ذكراها. كانت الأرض مكسوة بالثلج، والبرد يلسع أطرافه، لكنه لم يشعر بشيء. كان يسير دون هدف، فقط رغبة عميقة في أن يبتعد... عن كل شيء.

مر بقبر أسيل قبل أن يغادر، وقف أمامه طويلًا، انحنى بهدوء، ووضع شيئًا صغيرًا فوق القبر. كان الناي الذي لم يعد له لحن.

همس: "سامحيني، لم أكن كما يجب... لكنني سأكمل، لا أعرف كيف، ولا إلى أين... فقط سأمشي، وأسير في المكان الذي لم نصل إليه سويًا."

ثم رحل، ومرت أيام، وربما أسابيع، لا يعرف كم. في إحدى الليالي الباردة، كان جالسًا قرب نار صغيرة حاول إشعالها، لكن يديه كانت ترتجفان. رفع رأسه ليتفاجأ... ظل رقيق يقف أمامه.

شعرها كان كما هو، ووجهها ساكن كما كان دائمًا، تنظر إليه بعينيها الواسعتين.

وقف فجأة، يتنفس بصعوبة، عينيه تلمع من الدهشة والدموع:

"أسيل؟"

لكن لا أحد أجابه. لا صوت. لا حركة. فقط صورتها، واقفة هناك، تبتسم له. ثم اختفت فجأة.

لم يصدق ما رآه، ذهب يبحث حوله، يناديها، لكن لا أحد هنا.

جلس مجددًا، قلبه يخفق بشدة، ثم همس لنفسه:"أنتِ الغائبة الحاضرة في كل وقت، البعيدة التي لا سبيل للوصول إليها...

وكلما حاولت نسيانك، وجدتني أعود إليكِ كأنك قدري الذي لا مفرّ منه."

من هذه اللحظة، بدأ يسمع صوتها أحيانًا، يراها في الظلال، يراها تمشي بجانبه... لم تعد حقيقته خالية منها، صارت جزءًا من رحلته، وإن كانت مجرد وهم.

لكن ونيس كان يعلم...

أن الوهم أحيانًا، هو الشيء الوحيد الذي يُبقي الإنسان على قيد الحياة.

في إحدى ليالي الشتاء القارس، كان ونيس يسير وسط الغابة، والثلج يُغطي الأرض حتى الركب، والسماء ملبدة بالغيوم الثقيلة. البرد ينفذ إلى العظم، والهدوء من حوله أشبه بصمت الموت. لم يكن في طريقه إلى مكان بعينه، بل كان يمشي... فقط ليمشي. لعلّ الخطوات تبعد شيئًا من الألم الذي لم يغادر قلبه منذ رحيل أسيل.

بينما هو كذلك، لمح من بعيد ضوءًا خافتًا يتراقص بين ظلال الأشجار. اقترب بحذر. وعندما وصل، وجد نارًا مشتعلة، ورجلًا يجلس بالقرب منها، ظهره منحنٍ نحو اللهيب.

رفع الرجل رأسه ببطء، وحين التقت عيناهما، تجمد ونيس في مكانه للحظة، قبل أن يهمس بدهشة:

"أيلمار...؟"

نهض الرجل على مهل، ثم قال بصوتٍ مبحوح:

"لم أكن أعتقد أنني سأراك مجددًا، ونيس."

لكنّ أيلمار ظل يحدق فيه... لم يكن هذا هو ونيس الذي عرفه صاحب ضحكة الجميله مع تلك الفتاة الجميله.

وجهه صار شاحبًا كأن الدم قد هجره، وعيناه غائرتان كمن لم يعرف النوم منذ أشهر. كانت ثيابه ممزقة، متسخة، ومع ذلك، في نظر ونيس، هذا ليس مظهر رجل عاش المعاناة كما ينبغي.

اقترب ونيس، جلس بالقرب من النار، وقال بهدوءٍ عميق:

"لم أتوقع أن أراك بهذا الشكل... لكنني لا أظن أن البؤس قد غرس مخالبه فيك كما فعل بي. أنت تبدو متعبًا، لكني... أنا من يعرف المعاناة حقًا. أنا من دفن من أحبها بيديه."

خفض إيلمار رأسه بصمت، كأن الكلمات اخترقت صدره، ثم تمتم:

"ملامحك وتفاصيل وجهك تدل على ذلك تعجبت قليلا في رؤيتك في هذه الحالة ولم اجد تلك الفتاة التي كانت معك صاحبة ناي ."

تنهد ونيس، نظر إلى النار قليلًا، ثم رفع عينيه وسأله:

"لكن أنت... ألم تكن من أرض العمالقة؟ كيف انتهى بك الحال هكذا؟ لماذا تركت أرضك؟"

ارتبك إيلمار قليلًا، ثم رد بصوتٍ خافت:

"أرض العمالقة لم تعد كما كانت، ونيس. منذ أن بدأت التحولات الغريبة تظهر فينا، انقسمت الأرض بين من يرى أن علينا البقاء مخلصين لقوتنا، ومن يرى أن علينا كبح جماحها. وكنت... من الفئة الأخيرة."

رفع عينيه نحو ونيس وتابع:

"لم أعد أحتمل أن أُستخدم كأداة. كل شيء صار قتالًا... كأننا ولدنا فقط لنحطم بعضنا البعض. حاولت أن أُغيّر شيئًا من الداخل، لكنهم طردوني، وصفوني بالخائن."

صمت قليلًا، ثم أضاف:

"خرجت، أبحث عن معنى آخر ... عن حياة لا يحكمها صراع دائم. لم أجد شيئًا بعد، لكنني وجدتك، وهذا وحده يكفي الليلة."

ابتسم ونيس بخفة حزينة، ثم قال:

"الغريب أنني كنت أهرب من كل شيء... حتى من نفسي، لكن كل الطرق تعيدني إلى من عرفني في البداية."

اقتربا من بعضهما قرب النار، كلٌ يحمل ذاكرة موجعة، وخسارة لا تُنسى.

لكن، في تلك اللحظة، وسط الثلج والنار، وُلد شيء جديد...

صداقة تحملها المعاناة، وتربطها خيبة العالم.

نظر إليه ونيس ثم قال بفضول:

ـ هل جرّبت أن تحب يومًا؟

ابتسم إيلمار، وبدت على وجهه لمحة حنين، ثم قال:

ـ هل ستستمع إليّ حتى النهاية؟

أجاب ونيس بثقة:

ـ بالطبع، تفضل، أنا أنصت لك.

رفع إيلمار نظره نحو السماء، وصوته فيه همس خافت:

ـ عندما غادرت أرضي، موطني، لم أكن أعلم إلى أين أذهب... لكن ما كنت أبحث عنه حقًا لم يكن مكانًا فقط، بل شعورًا... الحرية.

تابع بنبرة شاردة:

ـ حتى وجدت تلك القرية الصغيرة. تجولت فيها قليلًا، وحينها رأيتها... فتاة ذات طَلّة هادئة، وعينين واسعتين. لا أكذب عليك، أحسست بشيء غريب بداخلي، شعور لم أختبره من قبل.

ـ حاولت التحدث إليها مرارًا، لكنها كانت ترفض في كل مرة، لا أعلم السبب... لكنني لم أيأس، تكررت محاولاتي قرابة عشر مرات.

نظر إيلمار إلى ونيس وابتسم بخفة قبل أن يكمل:

ـ في المرة الحادية عشرة... وافقت أن تحدثني. أخبرتها أنني، ومنذ أن رأيتها، لم تغادر خيالي، وصارت كل أفكاري تدور حولها.

ـ صمتت قليلًا، ثم قالت لي:

ـ أنا مشغولة كثيرًا، ولا يمكنني أن أبادلك نفس الشعور... ثم، أنت أحببتني دون أن نتحدث ولو مرة، كيف ذلك؟ هناك الكثير من الفتيات الجميلات، لماذا أنا تحديدًا؟

ـ ابتسمت، وقلت لها:

ـ لا أعلم كيف أو لماذا... لكنني أعلم أنه منذ أن رأيتك، لم أعد أرى أحدًا سواك. لم أكن هكذا من قبل... لكنني شعرت بشيء جميل عند لقياك.

تنهد إيلمار قليلًا، ثم قال:

ـ همهمت، وبدت عليها الحيرة... ثم قالت بهدوء:

ـ حسنًا... يمكننا الحديث متى أردت، ويمكنك الاطمئنان عليّ وقتما تشاء.

سكت إيلمار، وكأن الذكرى سكنت على لسانه، ثم قال مبتسمًا:

ـ ومنذ تلك اللحظة، تغيّر شيء بداخلي... الحب، يا ونيس، لا يحتاج إلى منطق. أحيانًا، يكفي أن تراك عيناك لترى في شخص غريب... وطنًا.

مرت الأيام، وكل يوم كان يحمل لحظة أجمل من سابقه حين أتحدث معها... كانت كلماتي تخرج بسهولة، كما لو أن قلبي وجد مكانه أخيرًا.

لكن شيئًا فشيئًا... بدأت ألاحظ ما لم أكن أريد أن أراه.

في البداية، كنت أنا من يبدأ الحديث دائمًا. كنت أتكلم كثيرًا... أروي، أضحك، أحاول أن أخلق بيننا دفئًا، طمأنينة.

لكنها كانت صامتة... لا تقاطعني، لا تسأل، فقط تستمع.

وحين أصمت... كانت تصمت.

لا تكسر الصمت، لا تفتحه بحرف.

وفي كل مرة أراها... كانت عيناها تتهرب من عينيّ، وكأنها تخجل من قول شيء... أو تخشى أن تصدمني.

بدأت أفكاري تنفد، وكلامي يجف، حتى صرت أقف أمامها صامتًا مثلها.

ومع الوقت... شعرت أنني لم أعد شيئًا بالنسبة لها، أو ربما لم أكن يومًا.

فتركتها... ليس غضبًا، بل رجاءً. رجوت أن تشعر بغيابي، أن تبحث عني، أن تقول أي شيء، حتى مجرد "أين كنت؟"...

لكنها لم تفعل.

أصبحنا غريبين. أو ربما... أنا من كان الغريب منذ البداية، وهي فقط كانت تساير وجودي.

وذات مرة، نصحني شخص بحكمة لم أنسها:

"إن كان البُعد هو الحل الوحيد لتبقى قريبًا من شخص تحبه... فابتعد."

كنت أردد كلماته بداخلي كأنها درع...

كلما حاولت الحديث معها، أتذكّر تلك العبارة، وأسحب نفسي بعيدًا،

أقنع نفسي أن البُعد أحيانًا أكثر رحمة من التعلق،

أن بعض القلوب لا يكفيها الحب... بل تحتاج شيئًا آخر، لا أعرفه.

وهكذا، توقفت عن التفكير بها.

أو ربما... حاولت أن أتظاهر بذلك.

لكن في قلبي، كانت هناك مساحة فارغة،

تجلس فيها صورتها... دون كلام، ودون ملامح واضحة، فقط صمت يشبهها.

ومرت الأيام...

كنت أقنع نفسي أنني تجاوزتها، أن قلبي أصبح أقوى، أنني فقط كنت ساذجًا في فهمي للحب.

لكن القدر... لا يكتفي بأن يجعلك تبتعد، بل أحيانًا يعود ليصفعك بما هو أقسى.

في أحد الأيام، بينما كنت مارًا قرب السوق كان قريب من مكان لقياها. سمعت ضحكة مألوفة... توقفت، التفتّ نحو مصدر الصوت...

ويا ليتني لم أفعل.

رأيتها... كانت تضحك، بحرارة، بقلب مفتوح، مع رجل آخر.

لم تكن تضحكة المجاملة التي كنت أراها معي... كانت حقيقية، مملوءة بنبض، بصدق، بحياة.

كانت تنظر إليه بنفس الطريقة التي تمنّيت يومًا أن تنظر بها إليّ.

تقدّمت بخطوات بطيئة، لا أشعر بقدمي،

اختبأت خلف جدار حجري، وراقبتها...

كانت تهمس له بشيء، ثم تضحك،

تضع يدها على كتفه،

وتتحدث... كثيرًا.

تتحدث.

نعم، هي التي كانت صامتة معي، التي لم تجد كلمة واحدة تقال،

كأن الآن نهرًا لا يتوقف، كلماتها تخرج كأنها لم تتوقف يومًا عن الحياة.

عندها فقط... شعرت بشيء ينكسر في داخلي، شيء لا يُصلح.

توقف كل شيء داخلي،

تجمدت مشاعري ربما.

لم أعد حزينًا... بل شعرت بالقرف.

نعم... بالقرف.

ضحكتُ لنفسي بسخرية...

"كل تلك الليالي، كنت أعيش وهمًا."

منذ تلك اللحظة...

كرهت كل ما له علاقة بالبشر.

كرهت قلوبهم التي لا تحفظ، وأرواحهم التي تتلوّن...

كرهت وجوههم القذرة... الوجوه التي تبتسم وهي تخفي الطعنات، الوجوه التي تحفظ ملامحك لتستغل ضعفك.

كرهت خداعهم... كلماتهم المعسولة التي تُقال لمجرد أن يمر الوقت، لا لصدق، لا لاهتمام، فقط لتمضية لحظة عابرة.

شعرت بأنهم... حثالة.

ولم يكن شعورًا عابرًا... بل حقيقة.

حثالة في كلامهم،

حثالة في مشاعرهم،

حثالة في كل شيء.

حتى دموعهم صارت تبدو مزيفة في نظري...

حتى الحب، الذي ظننته أنقى ما يمكن أن يملكه البشر، رأيته لعبة مريضة، سلاحًا يستخدمونه حين يشعرون بالملل أو النقص.

أشعر بالقرف...

القرف الحقيقي، العميق، لأنني... أحببت بشرية.

إنهم حمقى... يركضون كالمسوخ خلف المال والسلطة،

يلهثون ككلاب جائعة نحو وهمٍ زائل، يصنعون منه تاجًا على رؤوسهم القذرة.

من يملك السلطة... يظن من هوا اقل منه، كحشرة، كجسد بلا روح.

نسي أنه من لحم ودم... مثله تمامًا.

نسي أن التراب ينتظرهم جميعًا... بنفس الجوع.

وما أكثر من باعوا أنفسهم... من شوّهوا أرواحهم في سبيل ورقة، قطعة نقد، وهم فارغ.

رخصوا أنفسهم...

خضعوا، تزلفوا.

سجّلوا أسماءهم في قائمة الحثالة الأبديّة.

يالهم من قذارةٍ تمشي على قدمين،

يالهم من خيبة تُغلفها الوجوه الجميلة والكلمات العذبة.

أكره بني البشر...

أكرههم حتى وإن كنت أشبههم.

أكرههم حتى وإن كنت أمشي مثلهم، أتنفس مثلهم، أنظر في مراياهم.

لكنني لست منهم...

قلبي لم يعد يشبههم.

روحي لفظت انتماءها لهم.

أنا الآن... شيء آخر.

كائن منفى من تصنيفهم،

"أنا لست أحدهم... ولا أريد أن أكون."

وسكت ايلمار

لم يكن بحاجة لأن يقول المزيد.

فما في قلبه... قد احترق.

وما في روحه... لم يعد كما كان منذ زمن.

حزنت أكثر عندما قابلتها بعد ذلك، فصدمتني بسؤالها السخيف:

ـ كيف تحبني وأنت لا تعرفني؟

لم أكن أعرف كيف أُجيب.

لم أرَ منها سوى وجهها... لم أُحادثها يومًا... لا أعرف أصدقاءها، ولا حتى مَن تكون حقًا. لكنها كانت تسكن قلبي كأنها كل عالمي.

ثم أكملت:

ـ أما الرجل الذي كان معي... فهو ابن عمي، نعرف بعضنا منذ الطفولة، آباؤنا إخوة، جمعتنا لحظات كثيرة.

ـ كنت سعيدة تلك الليلة التي صارحته فيها بحبي، واكتشفت أنه كان يحبني هو الآخر...

لكن يا حسن حظي!

كان كلٌّ منّا يخشى الرفض، فاختبأنا خلف الصمت، حتى جمعتنا مصادفة في ذلك السوق القديم.

أما حديثي معك، فصدقني... لم يكن حبًا، بل فقط لأني لم أُرد أن أجرح مشاعرك.

ومن الجيد... أنك لاحظت تجاهلي لك من البداية.

حزن ونيس علي ما قد مره به إيلمار ثم قال:

ـ اتفق معكم ولكن بعضهم جيد فأبي من البشر وامي من المتحولين فلا اظن انه كل البشر مثل ما وصفتهم .

في تلك الليلة، بعد أن خيّم الحزن والخذلان على قلب ونيس وتذكره لحبيبته التي لم تكن تعرف حبه أسيل، لم يستطع النوم بسهولة بتفكير بأن ما حدث لأيلمار نفس الذي حصل معه

ولكن إيلمار انتهت قصة حبه بخيانة اما ونيس انتهت بموتها.

ظل يتقلب في مكانه، يتأمل ظلال الأشجار التي ترقص فوق وجوههم تحت ضوء القمر الشاحب. كان إيلمار قد غطّ في النوم، أنفاسه هادئة كأن لا شيء هزّ كيانه مثلما حدث مع ونيس.

في صباح اليوم التالي، انطلق ونيس برفقة إيلمار عبر الممرات المكسوّة بالثلج، متّجهين نحو أرض المتحوّلين... الأرض التي ترك فيها ونيس أخته "رينا" مع جده، على أمل أن يجد ذات يوم ما يستحق العودة من أجله.

كان الطريق شاقًا، لكن السكون بينهما لم يكن خاليًا من المعنى، بل كان مشبعًا بثقل الذكريات.

كل خطوة كان يُعيد فيها ونيس ما جرى مع أسيل، وكلما التفت إلى إيلمار، شعر بشيء غامض....كأن ذلك العملاق السابق صار ظلًا يبحث عن مكان لا يرفضه.

عندما اقتربا من الحدود الخارجية لأرض المتحولين، أبطأ ونيس من خطواته، وتنهد قائلًا:

"أشعر كأني عائد إلى عالمٍ تركني، لا عالمٍ تركته."

أجابه إيلمار بنبرة هادئة:

"الأرض لا ترفض أبناءها، يا ونيس... الناس من يفعلون."

وصلوا أخيرًا إلى القرية المتاخمة للبوابة الجنوبية، وهناك لمح ونيس منزل الجد العجوز، بأخشابه القديمة وألوانه الباهتة.

شعور دافئ اجتاحه، لكن قلبه كان مُثقلًا، لا يعرف كيف سيشرح لرينا غياب سنوات، وموت من كانت تعني له كل شيء.

طرق الباب بخفة. لحظات، ثم فُتح الباب، وظهرت رينا.

كبرت قليلًا، وجهها أكثر نضجًا، لكنها ما إن رأت ونيس حتى اتسعت عيناها، وصرخت:

"ونيس!"

أرتمت في حضنه، بينما هو احتضنها بشدة، كأنّه يعانق الذكرى التي ظنّ أنها ضاعت.

الجد خرج خلفها، بعينين دامعتين، وابتسامة باهتة على وجهه.

دخل ونيس المنزل، بصحبة إيلمار.

جلسوا جميعًا حول النار القديمة، وبدأ ونيس يسرد كل ما حدث... عن الحلبة، عن أسيل، عن الوداع، عن الوحدة... عن كل ما جعل منه شخصًا آخر.

رينا بكت، والجد ظلّ صامتًا، ينظر إلى حفيده بعينين مليئتين بالفخر والحزن.

أما إيلمار، فقد ظل يجلس في الظل، كأنه ضيف من عالمٍ آخر.

لاحظت رينا نظراته، فسألت بهدوء:

"وهذا...؟"

رد ونيس بابتسامة خفيفة:

"رفيق طريق. من أرضٍ بعيدة، تُدعى أرض العمالقة."

أضاف بعد لحظة صمت:

"مثلي، كان يبحث عن شيء ليمنحه معنى، وبدل أن يجده... وجدني."

ضحك الجد بهدوء، ثم قال:

"ربما هذا هو المعنى... أن يجد أحدنا الآخر."

في الأيام التالية، بقي إيلمار في الأرض، ساعد الجد في الحقل، وتحدث كثيرًا مع رينا.

كانت نظرته تتغير كل يوم، لم يعد ذلك الوجه الشاحب كما كان.

أما ونيس، فقد عاد إلى النوم ليلًا، بعد زمن طويل من الأرق.

لكن في داخله... بقي صوت أسيل.

يراها أحيانًا بين الأشجار، يسمع همساتها في الرياح.

لا يعلم إن كانت روحه ستشفى، لكنه أدرك شيئًا واحدًا:

أن بعض الفقد... لا يرحل، لكنه لا يمنعك من العيش.

في إحدى الليالي الهادئة، بينما كان القمر يلقي بنوره الفضي على أسطح الأكواخ، جلس ونيس قرب النهر الجاري، تُلاعب أصابعه سطح الماء البارد. كان كل شيء ساكنًا، هادئًا... حتى

همسٌ صغير بداخله بدأ يتصاعد، صوت أسيل... كأنها لا تزال تُراقبه، ترافقه، تمنحه القوّة ليكمل ما بدأه

وفجأة، وبدون مقدمات، تشكّلت ملامح أسيل في انعكاس الماء. لم يكن خيالًا عاديًّا، بل وجهها كما كان، بعينيها الواسعتين، وابتسامتها الهادئة، تلك الابتسامة التي كانت تشعره دومًا بأنّه ليس وحيدًا.

شهق ونيس، وسرت في جسده قشعريرة، وارتعشت يداه، اقترب أكثر، وعيناه تحدقان في الماء كأنّهما تخشيان أن تذوبا مع صورته. همس:

"أسيل؟... أأنتِ حقًّا؟"

ابتسمت الصورة، لكنها لم تنطق. فقط ظلّت تنظر إليه بعينين ثابتتين، كأنها تحادثه دون صوت، تنقش كلماتها في قلبه، لا في أذنيه.

خفض ونيس رأسه، واغروقت عيناه بالدموع. قال بصوت مختنق:

"كم أشتاق إليكِ... كل ليلة، كل لحظة، كل ركنٍ في داخلي يئن من غيابك."

ثم رفع نظره نحو السماء، والريح تعبث بشعره، وأكمل:

"كنتِ الضوء في ظلامي... وها أنا أُكمل طريقي وحدي، لكنك لم تفارقيني، لا في الحلم، ولا في اليقظة. حتى الماء... حتى انعكاسه لا يخلو من ملامحك."

ظلّ ونيس واقفًا أمام جدول الماء الصافي، يحدّق في انعكاس وجه أسيل، الذي بدا وكأنه حقيقيّ للحظة... ملامحها الرقيقة، ابتسامتها الهادئة، وعيناها اللتان كانتا دومًا تملآن قلبه بالسكينة.

اقترب قليلًا، جلس عند حافة الماء، وهمس بصوت مبحوح:

– ظننت أني نسيتك... لكنني كاذب، ما زلتِ هنا... في كل خطوة، في كل نظرة، في كل حلم.

ساد الصمت، سوى من خرير الماء الذي بدا وكأنه يردّ عليه بشفقة، أو ربما بحزنٍ لا يُطاق.

وبينما كان غارقًا في شروده، سمع خطواتٍ خفيفة خلفه، ثم صوتًا مألوفًا، هادئًا:

– أخي... مع من تتحدث؟

استدار ببطء، ليجد "رينا" واقفة خلفه، معطفها الطويل يتمايل مع نسمات البرد، ووجهها يحمل مزيجًا من القلق والحنان.

نظر إليها ونيس، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

– لا أحد... كنت فقط... أتذكر ما حدث.

اقتربت منه وجلست إلى جواره، نظرت إلى الماء، لكنها لم ترَ شيئًا، فقط وجه ونيس المتعب ينعكس بجانب وجهها.

قالت بصوت خافت:

– أسيل؟

لم يجب، فقط أومأ برأسه.

وضعت يدها على يده وقالت:

– أنا هنا الآن... ولن أتركك مجدداً.

سكت قليلًا، ثم همس:

– أعلم... لكن بعض الغياب لا يُعوّض يا رينا... وبعض الأرواح تظلّ تسكننا، حتى وإن رحلت.

صمتت قليلاً رينا ثم قالت:

– اشتقت لأمي ولأبي فما رايك ان نرجع لمنزلنا القديم؟

أوما ونيس رأسه بحزن ثم قال :

– ولكن أمك....

ابتسمت رينا ابتسامه خفيفه وقالت:

– لقد شفاها صديق وألدك ساحر وهي وتلك الفتاة التي احضرتها معك لا اتذكر اسمها .

اجاب ونيس:

– تقصدين لينورا.

ردت رينا:

– نعم هي لينورا

تغيرت ملامح ونيس من عابس لمبتسم وافق ونيس لرجوع لبيت أمه وابيه.

تكلمة رينا بقلق وقالت:

– ولكن هل سيقبلون صديقك الذي احضرته معك؟

رد ونيس :

– سيقبلون به مادمت انا قابل به

وافقت رينا على كلام ونيس، ثم عادا معًا إلى بيت جدهما ليخبراه بقرارهما. قالا له إنهما سيعودان في صباح اليوم التالي إلى أرض البشر، إلى منزل والدتهما. ابتسم الجد برضا، رغم حزنه الخفي، وتمنى لهما السعادة. ثم نظر إلى ونيس وقال له بنبرة دافئة:

– اعتنِ بأختك جيدًا، فهي أمانة في عنقك.

أومأ ونيس برأسه وابتسامة جميلة تملأ وجهه، ووعده بذلك.

بعدها التفت الجد إلى "إيلمار"، وأوصاه أن يبقى برفقة حفيده، ليكون له صديق درب ورفيق مخلص، فوافق إيلمار دون تردد، ووعده أن يكون بجانبه دائمًا.

وفي صباح اليوم التالي:

جمعت رينا أغراضها القليلة من بيت الجد، وما تبقى من مقتنيات ونيس، ثم غادروا جميعًا، عائدين إلى منزلهم القديم، إلى حضن والدتهم، وبرفقتهم إيلمار.

استقبلتهم الأم بعناق دافئ، يحمل مزيجًا من الحزن والاشتياق، وذرف الدموع بحرقة وهي تضمهم إلى صدرها.

سلمت على إيلمار، الذي قدم نفسه لها بكل أدب.

جلس الجميع بهدوء، وبدأ ونيس يروي ما حدث بعد رحيله وما دار هناك، وكل ما جرى بعد ذلك من أحداث.

صمتت الأم للحظات، ثم قالت بصوت خافت:

– بعد رحيل والدك، تولّى صديقه الساحر "جاد" مسؤولية إنقاذي أنا ولينورا. أخفانا في مكان آمن، لا أعرفه حتى اليوم، لكني أتذكر جيدًا كيف أنقذنا في لحظات كنا فيها على وشك الموت.

قاطعها ونيس بتوتر:

– وأين هي الآن؟ أين لينورا؟ كيف أستطيع أن ألتقي بها؟ لا أذكر أي شيء عن منزلها أو مكان وجودها.

سكتت الأم قليلاً، ثم أجابت بتردد:

– عندما شُفينا، كانت قلقة عليك كثيرًا... كانت تريد الذهاب إلى أرض المتحوّلين لرؤيتك، لكني أخبرتها أن ذلك خطر عليها، فهي بشر. بعد ذلك، دار حديث طويل بينها وبين الساحر جاد، لم أسمعه جيدًا، لكنها كانت تصر على شيء، أظنه يتعلق برغبتها في أن تصبح ساحرة... ربما لتجدك، أو لتحمي نفسها. لا أعلم باقي التفاصيل.

تنهدت الأم، ثم أضافت:

– منذ ذلك اليوم، لم تعد إلى منزلها. كنت أتابع أوراق المفقودين، وفي أحدها، وجدت اسمها مدرجًا ضمن المفقودين، مما جعلني أوقن أنها ما زالت تحت رعاية الساحر أو في مكان غامض لا نعرفه.

انقبض قلب ونيس من الحزن، وبدت ملامحه شاحبة، وهو يلوم نفسه في داخله. ظن أنه كان السبب في ما حدث، وظن أن لينورا ماتت، ولم يفكر قط بالعودة إلى منزلهم القديم ظناً ان امه ماتت.

أومأ ونيس برأسه بصمت، ثم قال بصوت خافت تخنقه المرارة:

– ظننت أنني السبب في موتها... ظننت أن الجميع مات بسببي، ولم أملك الشجاعة للعودة مجدداً بعد رحيلنا أو حتى السؤال... تركت كل شيء خلفي، وركضت نحو المجهول، هاربًا من ذنبي، من الماضي حتي تلك المسكينه التي عرفتنا واخذتها معي قتلت بسببي.

وضعت الأم يدها على كتفه، وقالت بحنان:

– لا تلم نفسك يا بني... كنتَ مجرد طفل في عالم أكبر من أن تتحمله. وما حدث لم يكن خطأك، بل كان قدرًا علينا أن نمر به، لنتعلّم وننضج.

هزّ ونيس رأسه ببطء، رفع نظره إلى أمه وقال:

– أمي... هل تعتقدين أن الساحر جاد ما زال على قيد الحياة؟

أجابت الأم بتردد:

– لا أحد يعلم. بعد أن أنقذنا اختفى فجأة. كأن الأرض ابتلعته. لكن إن كانت لينورا معه... فربما لم تختفِ، بل تم إخفاؤها.

تدخل إيلمار قائلاً:

– ربما يجب أن نبدأ من هناك أن كنت تريد البحث عنها... من المدينة التي كنتم فيها، حيث حدث كل شيء.

قالت الأم:

– ولكن نحن لم نكن نعلم اين كنا فقط كنا باللكاد الاضواء تضئ ف المكان الذي كنا فيه ... ولكن ان لم يخيب ظني سوف تجدوه في أرض السحره.

رد ونيس بنبرة حاسمة:

– إذًا وجهتنا الاقادمه الي أرض السحره.

في اليوم التالي مع بزوغ الشمس، جهز ونيس وإيلمار أنفسهم للرحلة. وضعت الأم في حقيبة ونيس بعض زجاجات التي تحميهم من سحره، وناولته تميمة أخرى وقلاده قالت إنها قد تُبطل بعض آثار السحر لربما اصابكم شئ ما.

انطلقت رحلتهم إلى "أرض السحره".

عند اقترابهم من أطراف الارض، تغير كل شيء.

السماء أصبحت رمادية، والهواء أثقل من المعتاد، وكل شيء من حولهم بدا وكأنه جامد... لا طير يطير، ولا ورقة تتحرك.

قال ونيس بهمس:

– هل تشعر بذلك؟... كأن الزمن هنا متوقف او هناك شئ خبيث.

أخرج ونيس القلادة، وإذا بها تتوهج بشدة، ثم بدأت تهتز وكأنها تقوده.

صرخ إيلمار فجأة:

– احذر!

اندفعت من بين الأشجار مخلوقات صغيرة غريبة الشكل، تشبه الظلال، لكنها تتحرك وتصدر همهمات غير مفهومة.

قال ونيس بسرعة:

– لا تهاجمهم... فقط دافع عن نفسك!

وبالفعل نجح، حتى لاحظ ونيس أن أحد المخلوقات الصغيرة يحدق في القلادة، ثم بدأ يتراجع ببطء، ليختفي فجأة وسط الضباب.

قال إيلمار:

– تلك الكائنات... لم تكن تريد قتلنا. وكأنها كانت تخرجنا.

أومأ ونيس وقال:

– هذه ليست كائنات فسحره يخدمهم الجن فلا اعتقد ان هذه كائنات حيه.

وعند منتصف الليل، قادهم الضوء المتوهج للقلادة إلى بوابة ضخمة مغطاة بالكتابات القديمة. كانت البوابة نصف متهدمة، ولكن النقوش عليها ما زالت واضحة.

قبل ان يلمس ونيس الباب وجد شئ يوضع على خده وكتفه نظر إلى ذلك الوجه ثم ابتعد بسرعه عنه فتكلم ذلك شي من خلف الظلام ماذا تفعلون في أرضنا أرض السحر أخربتم أرضكم أيهَ البشر واتيتم لتلوثو أرضنا بقذارتكم

نظر ونيس الي مكان صوت ثم قال:

– ومن انت اخرج إلينا ونحن ليس من البشر.

نظر إليهم ذلك شئ باحتقار وقال:

– هاجينين وحداً هاجين من بني البشر والآخر هاجين في طبيعته

خرج الكائن من الظلال ببطء، حتي يظهر انها ساحره ملامح جعلت قلب ونيس يتوقف للحظة... وقف في مكانه مذهولًا، عيناه لا تتحركان عنها، لا يرمش، لا يتنفس، كأن الزمن توقف بين نظراته ونظراتها.

قال إيلمار بدهشة وهو يقترب خطوة إلى الأمام:

– ونيس... هل ترى ما أراه؟

رد ونيس، بصوت مبحوح كأن حنجرته تجف من الصدمة:

– إنها... تشبه أسيل.

اقتربت الفتاة أكثر وعيناها بلون البحر حين يسبق العاصفة، نظرت إليهم بصمت، ثم مالت برأسها قليلاً.

قال إيلمار، ناظرًا للفتاة بذهول:

– هذه هي الفتاة التي كنت تحكي لي عنها، أليست كذلك؟ لكنك أخبرتني أنها... ماتت. كيف...؟ كيف تقف أمامنا الآن؟

لم يجب ونيس، بل ظل محدقًا فيها، كأن كل الكلمات سُرقت من فمه. كانت تلك النظرات لا تقول "مفاجأة"، بل "ضياع"... كأنه يرى شبحها مثل كل مره، عاد ليوقظه من صمته الطويل.

ظل ونيس يحدق فيها، وعيناه لا تتحرك، لا يتنفس بانتظام... الكلمات في داخله تصطدم بجدران الصدمة ولا تخرج.

هل هذا وهم جديد؟ هل عاد عقلي ليسخر مني كما كان يفعل كل ليلة؟

لكن... إيلمار يراها. ويسمعها.

بدأ عقله يغوص في دوامة من الأسئلة التي تنهش روحه كأنها أشباح من ماضٍ لم يدفن جيدًا.

إن كانت خيالًا، مثل كل مره فـ كيف يراها ايلمار ؟ وإن كانت حقيقة... فكيف؟ لقد كنت أنا من حملها بين ذراعيّ، كنت أشعر

بحرارة دمها وهي تبرد... كنت أنا من دفنها، وحدي، في ذلك التل.

تحدثت تلك الفتاة وهي لا تزال تنظر اليها بأستحقار:

ـ لا اعلم لماذا انت تنظر الي بتلك نظرات أصابني الاشمئزاز من تلك نظرات .

تحدث ونيس بصوت منخفض:

ـ انكي تشبهينها طبق الاصل .

تحرّكت الفتاة بسرعة خاطفة ، عيناها تشتعلان بسحر، اندفعت نحو ونيس وإيلمار بلا صوت، فقط سكون قاتل يسبق العاصفة.

ابتعد إيلمار بسرعة عن طريقها، تدحرج على الأرض وهو يصيح:

– ونيس! تحرك!!

لكن ونيس لم يتحرك... لا يزال واقفًا في مكانه، تائهًا بين الذكرى والواقع، لا يرى أمامه سوى وجهها... وجه أسيل، الحبيبة التي دفنها بيديه.

ضربته الفتاة في صدره بطاقةٍ غامضة، ارتد جسده بضع خطوات إلى الوراء، الدم بدأ يتسلل من أنفه وفمه وجبينه... لكنه لم يسقط، فقط وقف هناك، مذهولًا، يتلقى الألم دون مقاومة، وكأن كل ضربة كانت تذكيرًا بأنها حقيقية... وأنها ليست خيال مثل كل مره.

استعدت الفتاة لهجوم آخر، لكن هذه المرة تمتمت كلمات بلغة مظلمة، بعدها خرج منه كائن هائل، خادم من الجن، مغطى بالدخان، لا شكل ثابت له، يتحرك كما لو كأنه ظلها.

صرخ إيلمار وهو يلتفت:

– ما هذا؟!

اندفع الجني نحوه بسرعة لا تُصدّق، ضربه من الجانب ثم من الخلف، ثم من الأعلى، دون أن يتمكن إيلمار من رؤيته أو توقع ضرباته، كانت المعركة غير متكافئة... الجني كان كأنه يحارب خصمًا أعمى

تدحرج إيلمار أرضًا، يتلقى الضربات من كل مكان، لا يدري من أين تأتي، ولا كيف يردها. كان يسمع فقط همسات باردة تلف أذنه، ولمسًا أشبه بالجمر على جلده.

لا يمكنني الفوز عليه... لا أراه حتى!

ثم تذكر فجأة... تلك التميمة التي أعطتها أم ونيس له قبل الرحيل، تميمة صغيرة.

ركض نحو حقيبته بسرعة، أخرجها، فتحها وبلع قطرات من سائلها، في البداية شعر بحرقة شديدة في عينيه، كأن نارًا اشتعلت داخله، ثم بدأت الرؤية تتغيّر... الضباب تلاشى، والظلال أصبحت واضحة، وإذا بالجني يقف أمامه، ضاحكًا بشفاه لا تُرى.

– الآن أراك...

قالها إيلمار بغل، ثم استلّ خنجره المضيء، وهجم.

تحولت المعركة فجأة... إيلمار بدأ يتفادى الضربات، يردها، يُصيب، يجرح، وكل خطوة يخطوها كانت مدفوعة بعزم حماية ونيس.

أما ونيس... فقد بدأ يسقط على ركبتيه. الدم يغطي وجهه، عنقه، ذراعيه... كانت الضربات تُنهكه، لكنها لم توقظه. نظراته لا تزال معلّقة عليها، على الفتاة... على الشبح... على أسيل، أو من تشبهها.

تمتم وهو يلفظ أنفاسًا مكسورة:

– إن كان قتلي لجعلي التقي بكِ... اقتليني. لكن لا تختفي عني مجددًا يؤلمني قلبي عندما أراكِ تبتعدين عني.

استمر الجني في الاشتباك مع إيلمار، بينما كانت الفتاة تقترب من ونيس بخطوات بطيئة، وملامحها بلا أيّ أثر للعاطفة... لا رحمة، لا غضب، لا حزن... فقط ذلك البرود القاتل الذي يشبه الموت حين يلبس وجهًا بشريًا.

كان ونيس يزحف على الأرض، الدم ينزف من فمه وجبهته، وكل نفس يخرج منه كأنه آخر، لكنه رغم ذلك لا يزال يهمس باسمها...

– أسيل...

توقفت الفتاة أمامه، ونظرت إليه للحظة... ثم انحنت قليلًا، وهمست له بصوت بارد:

– أسيل؟ من تكون؟

اتسعت عينا ونيس، وصدمته تلك الكلمات أكثر من أي ضربة تلقّاها. حدق فيها جيدًا، وكأنه للمرة الأولى يراها بوضوح... كانت تشبه أسيل، نعم، لكن ليس تمامًا.

ملامحها كأنها نُسخت عن الذاكرة... ولكن بشيء ناقص، شيء ميت. عيناها لا تحملان تلك اللمعة... بل فراغ، وكأنها لا تعرف من هي ولا من يكون هو.

ابتعدت خطوة للخلف، ونظرت حولها، ثم أضافت:

– أنا لست أسيل... أنا أخر شخص سوف تروه قبل موتكم .

ابتعدت الفتاة خطوة أخرى إلى الخلف، وملامحها بدأت تتلاشى تدريجيًا كأنها دخان يتبدد في الهواء.

نظرت إلى ونيس نظرة أخيرة، لا تحمل تهديدًا... بل شفقة، أو شيء يشبه الاعتراف بالحزن.

رفعت يدها إلى السماء، وهمست بصوت خافت، بالكاد يُسمع:

– وقتكم انتهى معنا... ولكن الوقت لا يرحم من يحمل الضعف في قلبه.

ثم اختفت...

كما ظهرت من الظلال، تلاشت بين الظلال،

ولم يبقَ منها شيء... سوى صدى بارد، وشعور غامض بثقلٍ غير مرئي يُغادر المكان.

عمّ الصمت، وسقط الهواء فجأة كأنه أطلق زفيره بعد حبسٍ طويل.

هدأ كل شيء.

ركض إيلمار نحو ونيس بسرعة، ركع بجانبه، وضع يده على كتفه وهزّه برفق:

– ونيس! هل أنت بخير؟!

رفع ونيس رأسه ببطء، كان الدم على وجهه قد جفّ، وعيناه متعبتان...

لكنه لم ينطق.

قال إيلمار بنبرة جدّية، لكن فيها دفء وقلق:

– لو بقيت هنا دقيقة واحدة إضافية... لكنّا الآن مجرد جثتين في هذا المكان.

ثم أضاف وهو ينهض ويعرض يده على ونيس لينهض:

– كان علينا أن نغادر من اللحظة التي شعرت فيها ببرودة الأرض... لكنك لم تكن هنا... كنت في عالم آخر، عالم لا أحد سواك يعرفه.

نظر ونيس إلى يد صديقه، ثم أمسك بها ونهض بصمت.

لم يرد...

لم يشرح...

فما حدث لم يكن معركة... بل كشفًا، وانهيارًا، وبداية شيء آخر داخله.

نظر إلى مكان اختفاء الساحرة، ثم قال بصوت منخفض، كأنه يحادث نفسه:

– لن أكون ضحية لهذا العالم... ولا لبشره... ولا لظلاله.

ثم سارا معًا، تاركين خلفهم رائحة الرماد، وصدًى لا يسمعه إلا من خسر شيئًا لم يعُد له وجود.

حلّ الليل وسكن المكان، وابتلع الظلام كل أثرٍ للنور.

بدأت السماء تخفي نجومها في ظلال، وكان القمر لا يزال مختبئًا خلف الغيوم الثقيلة. لم يعودوا قادرين على رؤية شيء من حولهم، فتوقفوا تحت غصن شجرةٍ ضخمة، جلس ونيس وإيلمار يشعلان نارًا .

قال ونيس وهو ينظر إلى ألسنة اللهب تتلوى أمامه:

ـ نمْ أنتَ يا إيلمار حتى منتصف الليل، وسأتولى حراستك. ثم أخلدُ للنوم، وتحرسني أنت في المقابل. وهكذا حتى يُشرق ضوء الشمس فنكمل طريقنا.

وافق إيلمار على ما قاله ونيس، ثم تمدّد ونام، بينما بقي ونيس مستيقظًا يراقب المكان بهدوء.

وبعد أن ظهر القمر فوقهم، سمع ونيس همساتٍ خافتة تتسلل من قلب الظلام، قبل أن يخاطبه صوت منخفض وغامض:

ـ رأيتُ قتالكم مع تلك الساحرة...

يبدو أنك تعرفها جيدًا، فقد لاحظت أنك لم تهاجمها ولو لمرة واحدة.

إنها تُشبه تلك الفتاة... أليست كذلك؟

أستطيع، إن أردت، أن أُعيدها إلى الحياة...

لكن، هناك شرط.

هناك ساحرة أخرى... ليست من أرضنا، وقد حملت إليّ الكراهية منذ زمن بعيد.

أريدك أن تقتلها.

أنا لا أطلب منك ان تكون خادمِ او حارسِ، فأنا أملك القوة لحماية نفسي.

لكنني رأيت ما في داخلك... وحشٌ نائم، وقوة هائلة تكاد تنفجر.

نفّذ طلبي، وأعدك أن أمنحك ما لم يكن يومًا في حسبانك.

أما هي... فهي أضعف مما تتصور، ولا تستحق أن تبقى على قيد الحياة.

شعر ونيس بالقلق يتسلل إلى قلبه مع كل كلمة نطق بها ذلك الصوت، ثم قال بتردد:

ـ ولكن... أنا لست من أرضكم، ولست بساحر.

ردّ الصوت بنبرة حادة كالسيف:

ـ أعلم ذلك جيدًا.

لكننا نحن السحرة ممنوعون من قتال بعضنا البعض.

هناك قانون قديم يسري على الجميع دون استثناء.

من يخالفه... يتوقف قلبه في اللحظة ذاتها، ويهجره الخدم، حتى وإن كان في ذروة سلطته.

الموت حينها لا يكون اختيارًا... بل نهاية محتومة.

نظر ونيس نحو الظلام محاولًا تمييز صاحب الصوت، ثم قال:

ـ ولكن... كيف تعلم أنني سأقتلها؟ من الممكن ان هي تقتلني !

ساد صمت لثوانٍ قبل أن يتحدث الصوت من جديد، بنبرة أكثر حزمًا:

ـ لأنك أقوى منها بمراحل.

هي، والساحر الذي معها، لا يملكون نصف ما تملكه أنت من طاقة.

رغم أنك تبدو صغيرًا، إلا أن القوة التي بداخلك... لم يُولد مثلها منذ زمن طويل.

وكما أخبرتك سابقًا... إنها ضعيفة، ولا تستحق ما وُهِبَت من سحر.

تسللت كلمات الساحر إلى أعماق ونيس، فأخذ يُفكر فيها بعمق.

أسيل... هل حقًا يمكن أن تعود؟

كيف سيُعيدها؟

هل هذا ممكن؟

هل هناك سحر قوي إلى هذا الحد؟

همهم ونيس، ثم رفع عينيه نحو الصوت وقال بشكٍّ واضح:

ـ ولكن... كيف أضمن أنك ستفي بوعدك؟ كيف أعلم أنك حقًا ستُعيدها إليّ؟

ساد صمتٌ للحظة، ثم تمتم الرجل بكلمات غير مفهومة، ومدّ يده قائلًا:

ـ ضع يدك في يدي... ولا تتركها مهما حدث.

إن أفلتّها... سأختفي من أمامك، ولن تراها مجددًا.

نظر ونيس إلى اليد الممتدة نحوه، قلبه يتصارع بين الشكّ والرجاء... ثم وافق، ووضع يده ببطء في يد الساحر.

وبمجرد أن التقت أيديهما، بدأ الساحر يُتمتم طلاسم غريبة، ترددت في المكان كصدى لا ينتمي للعالم الذي يعرفه ونيس.

ثم... بدأت ملامح تتشكّل أمامه، كأن الهواء نفسه يُعيد تشكيل الروح.

وفجأة... ظهرت أسيل.

كانت تقف أمامه تمامًا، ملامحها كما تركها، نظرتها، دفء عينيها، وصوت تنفّسها الذي افتقده طويلًا.

فتح ونيس عينيه بدهشة، ارتجف صوته وهو يهمس:

ـ أ... أسيل...؟!

تقدّمت أسيل خطوة نحوه، تنظر حولها بذهول قبل أن تهمس بصوت مرتجف:

ـ ونيس... ما الذي جرى؟!

كيف أصبحت أراك؟ آخر ما أتذكّره... أننا كنّا في الحلبة...كيف أتينا إلى هنا.

لم يجبها ونيس، فقد انسابت دموعه بصمت، تساقطت على وجنتيه دون أن يقدر على قول كلمة واحدة.

اقتربت منه أسيل بكل حنان، ومسحت دموعه بأطراف أصابعها، ثم نظرت إليه بعينين يملؤهما القلق وقالت برقة:

ـ لماذا تبكي؟

هل قلتُ شيئًا أزعجك؟

هل... فعلتُ ما يجعلك حزينًا بسببي؟

إن كان كذلك... فأنا أعتذر، حقًا أعتذر...

لم يتحمّل ونيس كلماتها، فرفع رأسه أخيرًا وتحدّث بصوت خافت، يملؤه الحزن والندم:

ـ لا تعتذري... أنا من يجب أن يعتذر.

أنا الذي تركتك، أنا الذي دخلت تلك الحلبة اللعينة، التي كانت سببًا في فقداني لك.

حين دخلتُ الساحة، سُمِع صراخك... ركضتُ نحوك، لكن الوقت كان قد فات.

رأيتهم... رجالًا لا أعرف من يكونون، تطوّقوا بك، وعندما وصلت...

وجدتكِ... غارقة في دمائك.

انكسرت نبرته في آخر كلمة، وغلبه البكاء من جديد.

أسيل، التي كانت تقف أمامه، شعرت بأن في صوته شيئًا لم تسمعه من قبل: وجعٌ، وذنب، وشيء من الخوف.

نظرت أسيل إلى ونيس باستغراب، عيناها تمتلئان بالحيرة، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ ولكن... كيف تقول إنني متُّ، وأنا واقفة أمامك الآن؟ ، لم اعد أفهم شى!

رد ونيس، ويده ما تزال تمسك يد الساحر بإحكام، وعيناه لا تفارق ملامحها:

ـ لا أعلم كيف حدث هذا... ولكن بفضل هذا الساحر... هو من أعادك، إنه الممسك بيدي الآن.

رمشت أسيل مرتين، ثم نظرت حولها وقالت بتوتر:

ـ أي رجل تتحدث عنه؟!

لا يوجد أحد هنا سوانا، أنا وأنت!

قبل أن يرد ونيس، انبعث الصوت مجددًا من خلفه، بنفس النبرة الغامضة:

ـ لا يمكنها رؤيتي... ولا سماعي.

لقد جئت بها إليك مؤقتًا، لكن الوقت ينفد.

لن أستطيع حجز روحها في هذا الجسد أكثر من ذلك.

تسارعت أنفاس ونيس، بينما شدّ على يد الساحر أكثر، كأنه لا يريد أن يفلتها أبدًا.

أكمل الرجل بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

ـ عندما تُنفّذ شرطي... وعندما تموت تلك الساحرة التي كلمتك عنها...

سأُعيدها إليك بالكامل... حيّة، كما كانت.

نظر ونيس إلى عيني أسيل، كأنّه يخشى أن تُغلق للحظة وتختفي، ثم قال بصوتٍ متهدّج، تملؤه العاطفة والحنين:

ـ لا أعلم إن كنتِ تتذكرين ذلك...لكنني أحبك، وأريد أن أبقى معكِ إلى الأبد.

لا تتخيّلين كم كانت الأيام قاسية بدُونك...

كنتِ لا تفارقين خيالي، وكل يومٍ يمضي، كانت حالتي تزداد سوءًا.

لكنني أعدك... في لقائنا القادم، أعدك أنني لن أفارقك أبدًا، وسأحميكِ مهما كان.

لأن تغفلي عني ثانية، أقسم لكِ... إن اقترب منكِ أحد، أيًّا كان، حتى لو كان العالم بأسره، فسأمنعه...

ولن يهمني من يكون.

صمت لحظة، ثم تابع بصوت خافت لكنه يحمل عزيمة لا تتزحزح:

ـ لا أعلم كيف أحببتك بهذا الشكل، وكيف تملّكتِ قلبي إلى هذا الحد.

لكن... إن خُيّرت يومًا بينك وبين أقرب شخصٍ لي، سأختاركِ أنتِ...

حتى لو تطلب الأمر أن أقف في وجه من أحببتهم يومًا...

سأبقى معكِ، ما حييت.

إليه أسيل باستغراب، وبدت الحيرة مرتسمة على وجهها.

اقتربت قليلًا، ومالت برأسها وقالت بتردد:

ـ أُمم... لا أعلم عمّا تتحدث بالضبط، ولكن...

وقبل أن تُكمل جملتها، اهتزّت صورتها فجأة، كأن الهواء نفسه لم يعد قادرًا على احتوائها، ثم بدأت ملامحها تتلاشى ببطء...

كأنّها لم تكن إلا ذكرى حية خرجت من قلب ونيس.

مدّ يده نحوها وهو يهمس:

ـ لا... لا ترحلي الآن...

لكنها كانت قد اختفت.

وفي اللحظة نفسها، أفلت الساحر يد ونيس، وابتعد عنه دون أن ينطق بكلمة.

شعر ونيس بفراغٍ ثقيل يسكن صدره، وبقشعريرة تسري في أطرافه، ثم التفت وراءه، فلم يجد الساحر...

كأنه لم يكن موجودًا من الأساس.

بقي واقفًا هناك، والنار بدأت تخبو شيئًا فشيئًا.

ما إن هدأت النار، وسكنت الظلال من حوله، اقترب رجل من ونيس مرة أخرى ثم قال:

ـ ونيس...

التفت فورًا، لكن لم يظهر شيء... لا جسد، لا ظلّ، فقط صوت يتردد كصدى داخل قلبه.

ـ أعلم أن فراقها كان مؤلمًا... وأعلم أن رؤيتها أيقظت فيك شيئًا لم تعد تستطيع إطفاءه.

لكنك الآن أمام خيار لا ثالث له.

ساد صمت لثوانٍ، ثم تابع الصوت بصوت أكثر حزمًا:

ـ إما أن تنفّذ طلبي... وتقتل تلك الساحرة التي أخبرتك عنها.

وإن فعلت... سأعيدها إليك حيّة، كاملة، كما كانت... روحًا وجسدًا، وعقلًا لا يشوبه غموض.

ـ أو... ترفض.

وفي هذه الحالة، سأمحو ذاكرتك بالكامل.

لن تتذكّرني، سأُزيل وجودي من عقلك، كأنني لم آتك قط، وكأنها لم تقف أمامك هذه الليلة.

شعر ونيس بقلبه يرتجف، كأن بين يديه قلبه لا عقله، يضرب بشدة من هول المفاضلة.

أسيل؟ أن تعود إليه مجددًا؟

أم... أن يخسرها مرتين؟

أكمل الصوت، بنبرة باردة تشبه الموت:

ـ أمامك حتى طلوع الفجر...إما القتل، أو النسيان.

ثم... صمت كل شيء.

اختفى الصوت كما أتى، وبقي ونيس وحده، وسط الرماد، يحدّق في نيرانٍ خمدت، كأنها تُشبه قلبه الآن.

نظر ونيس إلى الساحر وعيناه مليئتان بالريبة والفضول،قبل أن يختفي ثم قال:

ـ ولكن كيف سأخبرك إن وافقت؟ كيف ستعرف؟

ابتسم الساحر بخفة وأخرج من عباءته كرة صغيرة زجاجية، تتوهج بوميض أزرق خافت، وكأنها تنبض بالحياة، ثم مدّ يده بها إلى ونيس وقال:

ـ خذ هذه.

إذا وافقت على عرضي، فاكسرها... وستعرفني حينها. سأأتيك في الحال.

أما إن لم توافق، فاتركها على الأرض... وستنسى كل شيء، الخيار لك يا ونيس... ولا أحد غيرك يستطيع اتخاذه.

ثم أدار الساحر وجهه، وتمتم بكلمات لم يفهمها ونيس، لتبدأ أطرافه في التلاشي، كالدخان.

ثم اختفى.

وترك ونيس واقفًا، ينظر إلى الكرة الزجاجية في يده...بين أن يكسرها... أو يتركها تسقط على الأرض.

في أعماق الليل، وتحت ظلال الأشجار الثقيلة التي تسكن الغابة الملعونة، وقف ونيس وحده يحمل تلك الزجاجة البلورية الصغيرة بين يديه. كانت تنبض بلون أزرق باهت، وكأنها تحتوي على شيء حي.

ظل يحدّق فيها، يتذكّر وجه أسيل... صوتها... ضحكتها التي كانت تمحو كل الحزن من قلبه.

لكنها الآن... لم تعد موجودة.

ماتت.

رغم كل ذلك، بقي صوت الساحر يتردّد في رأسه، وكأن كلماته الأخيرة لم تكن مجرد كلام، بل لعنة طافت مع الريح، وانتظرت لحظة القرار.

ـ "هذه الزجاجة آخر صلة بيني وبينك، ونيس...إن كسرتها، سأعلم أنك وافقت، وسأعود إليك.

ـ وإن وضعتها على الأرض، ستنسى كل شيء.

ونيس كان يعلم أن القرار لم يكن مجرد اختيار... بل بداية طريق لنهاية لا يعلم أحد كيف ستنتهي.

ضم الزجاجة إلى صدره، وسار ببطء نحو ضوء القمر المتسلل من بين الأشجار، وكأنّه يبحث عن إجابة بين السكون.

كان الجو ساكنًا حدّ الجنون، لا صوت يُسمع سوى أنفاسه التي اشتدّت، وقلبه الذي بدأ يخفق بعنف.

ثم رفع الزجاجة أمام وجهه وهمس:

ـ "أسيل... أنا أعرف أنكِ لن تعودي... لكن إن كانت رجوعك حقيقة خلف هذا السحر، فأنا مضطر لأكمل... ولو أني سأنتهي أنا أيضًا."

أغمض عينيه، ثم رفع يده الأخرى... وفي لحظة، ألقى الزجاجة بكل قوته على الأرض.

تحطمت الزجاجة على الصخور بصوت حاد، وانتشر ضوء أزرق سريع كوميض البرق، ليُشعل المكان لحظة... ثم يخفت.

لكن قبل أن يلتقط ونيس أنفاسه، شعر بتغيّر في الهواء من خلفه... بردٌ مفاجئ تسلل إلى عنقه...

وخطوة واحدة كانت كافية ليشعر أن شيئًا خلفه.

استدار ببطء... وإذا بذلك الساحر يقف هناك.

لكن عينيه، لا تزال تحمل تلك النظرة...

نظرة من يعرف ما لا يجب أن يُقال.

قال الساحر بصوت متهدّج :

ـ "ها قد اخترت... وقد جئت كما وعدت."

وقف ونيس بثباتٍ يتناقض مع العاصفة التي تعصف بداخله.

نظر إلى الساحر طويلًا، ثم قال:

ـ أخبرني... من هي تلك الساحرة التي طلبتَ مني قتلها؟ ما اسمها؟ وأين أجدها؟

أشار الساحر بيده، فانبثقت في الهواء دائرة من الدخان، تلاعب بها الضوءُ حتى تشكّلت في وسطها صورة امرأة.

كانت تقف على تلةٍ عالية، يطير شعرها الطويل مع الريح، ترتدي عباءة داكنة، ويُحيط بها الظلام من كلّ الجهات.

قال الساحر بنبرة هادئة:

ـ "اسمها... لينورا.

ـ تسكن عند حافة جبل غريش، ستجدها مع ذلك ساحر الذي يرافقها.

تجمّدت ملامح ونيس، وانسحب الدم من وجهه، وكأنّ قلبه توقّف عن النبض للحظة.

ـ "لينورا...؟"

همس بها كأنّها اسم طعن قلبه، لا لذته.

تراجع خطوة إلى الوراء، يهمس لنفسه دون وعي:

ـ "هذا مستحيل... مستحيل."

رفع رأسه ونظر إلى الساحر بعينين يملؤهما الاضطراب، وقال:

ـ "لقد أتيتُ إلى هذه الأرض من أجلها! كيف تطلب مني قتلها؟"

ابتسم الساحر ابتسامةً باهتة، وقال:

ـ "إذن، تعلم أنّها ليست من السحرة؟ وأنها لا تنتمي إلى عالمنا؟"

لم يرد ونيس، بل ظلّ ينظر إلى الأرض بصمتٍ يشبه الانهيار.

اقترب الساحر منه خطوة أخرى، وقال بصوتٍ بارد:

ـ "الخيار ما زال بيدك، ونيس.

إن قتلتها، أعيد إليك الفتاة التي تُدعى أسيل.

وإن تركتها... فلن تراها ثانيةً، ولن تعود لك أسيل أبدًا."

ظل ونيس صامتًا، يتنفس بصعوبة، والشرر يتصاعد في عينيه.

قال بصوتٍ خافت:

ـ "لا أستطيع... هي... هي لينورا..."

قاطعه الساحر وهو يحدّق فيه باحتقار:

ـ "الفتاة ذاتها التي أتيتَ من أجلها؟ أم التي وعدتها أن تحارب الدنيا من أجلها؟"

هزّ ونيس رأسه ببطء. لم يكن يملك كلمات، بل صراعًا لا يهدأ داخله.

ضحك الساحر بسخرية، وقال:

ـ "لم تتغيّر يا ونيس...ما زلت تجيد الاختباء خلف الكلمات، قلتَ لها إنك ستحميها من كلّ شيء... لكنك الآن تطلب سُبل القضاء عليها مجدداً."

رفع ونيس رأسه فجأة، وقال:

ـ "لم أكذب عليها قط!"

اقترب منه الساحر خطوة، وتلاشى من وجهه أثر السخرية، وقال بنبرة أكثر جديّة:

ـ بل كذبت... كذبت حين وعدتها أنك لن تتخلى عنها أليس هذا كلامك!؟... ها ألم تقول انك تحبها، كذبت حين قلت إنك ستواجه العالم لأجلها، فها هو العالم أمامك، وأنت تنكسر أمام أول اختبار.

صمت ونيس، وانخفض بصره، كأن الأرض فجأة أصبحت تحمل ذنبه بأكمله.

أكمل الساحر بصوت خافت لكنه كالسياط:

ـ "تعرف لماذا لا تصمد أمام هذا القرار؟ لأنك ما زلت تراها تلك الفتاة الضعيفة التي تحتاجك، بينما الحقيقة... أنها لم تعد كذلك."

رفع ونيس عينيه فجأة وسأله بمرارة:

ـ "ماذا تعني؟"

قال الساحر بصوت خافت كأنّه يتسلّل إلى أعماقه:

ـ لينورا تغيّرت لم اكرهها من فراغ... لم تعد الفتاة التي عرفتها. العالم الذي دخلتْه غيّرها، والسحر الذي تتعلّمه سوف يُغيّرها أكثر. لن تنظر لضعيفٍ مثلك، وإن كانت لا تزال تحتفظ بشيء من إنسانيتها... فهو لأنك كنت يومًا في قلبها. لكن، صدقني، كلّ ذلك مجرّد وقت... وأعدك، لن تعود إليك مجددًا."

تردّد صوت الساحر داخله كضربات مطرقة. ونيس، الذي ظلّ يقاوم الشك، وجد نفسه يستسلم ببطء.

ضغط على مقبض يده، وأغمض عينيه بقوة.

ـ "إن وجدتها في جبل غريش..."

قالها بنبرة يائسة كأنّه يحكم على قلبه بالإعدام.

ـ "سأفعلها."

ابتسم الساحر، وبدأ يتلاشى في الهواء كما جاء، تاركًا خلفه رائحة خفيفة من رمادٍ وسحر قديم.

لم تمر ثوانٍ حتى سمع ونيس صوتًا مألوفًا يناديه من الخلف:

ـ وَنيس! ما الذي تفعله هنا وحدك؟

استدار سريعًا، ليرى إيلمار يقترب منه بخطوات حذرة. بدا عليه القلق والتعب.

أجاب ونيس محاولًا التماسك:

ـ شعرت بوجود شيء غريب... كأنّ أحدهم يراقبنا، فذهبتُ لأتفقد.

رفع إيلمار حاجبًا ثم نظر حوله:

ـ لم أرَ أحدًا. على الأرجح، أوهام الليل.

أومأ ونيس دون تعليق، وحاول أن يبتسم ليُبعد الشكوك.

عاد الاثنان سويًّا ببطء نحو المخيّم، حيث ما زالت النار تشتعل بهدوء، والظلام يلتفّ من حولهم مثل عباءةٍ ثقيلة.

جلس إيلمار، وأسند ظهره إلى جذع شجرة، وقال:

ـ حان وقت النوم. سأبقى متيقظًا هذه المرّة، وأوقظك منتصف في صباح.

أومأ ونيس بصمت، وتمدد إلى جوار النار، عيناه إلى السماء، لكنها كانت لا ترى شيئًا...

كلّ ما يشغله الآن، أن طريقه قد تحدد... وقلبه يسير إلى حتفه بخطى باردة.

نام ونيس حتى ظهر أول خط للشمس واستيقظ. وجهزوا أنفسهم وأكملوا في صباح رمادي، بينما كانت السماء تخفي

شمسها خلف غيوم كثيفة... توقف ونيس فجأة عن السير، والتفت نحو إيلمار، الذي كان يمشي خلفه بخطوات متثاقلة.

قال له بهدوء لكنه بدا مصمّمًا:

ـ إيلمار، ما رايك أن نفترق.

توقف إيلمار، وتطلّع إليه باستغراب:

ـ نفترق؟! لماذا؟

ردّ ونيس وهو يحاول أن يُخفي اضطرابه:

ـ وجودنا معا يُبطئ خطواتنا، وأظنّ أن بحثنا سيكون أسرع إن تفرّقنا... لا تقلق، إن وجدتُ شيئًا، سأعود إليك أو أرسل لك إشارة.

تأمل إيلمار عيني ونيس للحظة، كأنه يقرأ ما خلف الكلمات، ثم قال:

ـ كما تشاء... ولكن كن حذرًا، ونيس. لا أثق كثيرًا بهذه الأرض ولا بما يُخفيه الظلام من أسرارها.

أومأ ونيس برأسه، وقال بابتسامةٍ باهتة:

ـ وأنا أيضًا...

ثم انصرف كلٌّ منهما في اتجاه مختلف، بينما بدأ قلب ونيس يضيق مع كل خطوة يبتعد فيها عن صديقه، كأنّه يعلم أنه يزجّ بنفسه في طريقٍ لا عودة منه.

بعد ساعاتٍ من السير وحده في الغابة، وصل ونيس إلى المكان الذي وصفه له الساحر.

بيت كبير خشبيّ قديم موجود عند طرف منحدر صخري، تحيط به أشجار كثيفة كأنها تحرسه، وسكونٌ غريب يملأ الأجواء.

اقترب ونيس من الباب، وطرقه مرارًا.

ـ هل من أحد هناك؟

لم يُجبه أحد.

طرق مرة أخرى، ثم ثالثة، ولكن لا صوت سوى صدى الطرقات يتردّد بين الأشجار.

تنهد ببطء، وجلس على الدرج الخشبي أمام الباب، عازمًا أن ينتظر، مهما طال الوقت.

مرّت الساعات ثقيلة، ومع اقتراب الفجر، لم يأتِ النوم لعينيه.

وعند بزوغ أوّل خيوط الشمس، بدأ صوت خطوات يقترب على الطريق الترابي.

رفع ونيس نظره، فرأى جاد، الساحر العجوز، يسير بجوار فتاة، خطواتها سريعة، تنظر حولها.

وحين وقعت عيناها على ونيس، اتّسعت حدقتاها، وصرخت بصوتٍ متهدّج:

- "ونيس!!"

ركضت نحوه، وانحنت لتضمه بشدّة، ودموعها تنهمر دون إذن.

ـ أين كنت؟! كنت سوف بحثت عنك كثيرًا... لم تتنساني، أليس كذلك؟!

تجمّد ونيس في مكانه للحظة، ولم يعرف كيف يردّ، ثم رفع يديه ببطء ليبادلها العناق، بينما عقله يُمزَّق من الداخل.

تحدّثت لينورا بصوتٍ متقطّع من فرط التأثر:

ـ نعلمت الكثير من السحر في هذه الأيام... وأهمّ ما أحاول السيطرة عليه الآن هو خادم البحث، إنه قويّ... لكنني أحاول جعله يُرشدني إليك... أنا والعم جاد نقضي وقتنا في تدريبه وخداعه والسيطرة عليه... أسبوعٌ كامل ونحن نحاول، وكل ذلك فقط... لأجلك.

رفعت رأسها ونظرت في عينيه:

ـ اشتقت إليك.

كاد ونيس أن يردّ، لكن الكلمات جفّت في فمه، وابتلع صراعه الداخلي بصمت.

ظهر جاد من خلفها وقال بهدوء:

ـ من الجيد أنك بخير، يا ونيس... ولكن، ما الذي جاء بك إلى هنا وحدك؟

أجاب ونيس بعد لحظة صمت.

ـ كنت أبحث عنكما... وشعرت أنّ هذا هو المكان الذي عليّ أن أبدأ منه.

قال جاد متأمّلًا وجهه:

ـ ولكنك لم تأتِ بحثًا عنّا فقط، أليس كذلك؟

تجنّب ونيس النظر في عينيه، وقال:

ـ يمكننا الحديث لاحقًا، أحتاج لبعض الراحة.

هزّ جاد رأسه ببطء وقال:

ـ "كما تشاء، ولكن تذكّر يا ونيس... الأسرار التي تُخفى طويلًا، تأكل من أرواح أصحابها."

بعد أن دخلو الي البيت، كان كل شيء يعكس مزيجًا من السحر والقدم؛

رفوف خشبية محمّلة بكتبٍ سميكة مغلقة بأقفال معدنية، وأدوات غريبة الشكل تتدلّى من السقف، وأوعية زجاجية صغيرة يتصاعد منها دخان أزرق خفيف.

جلس ونيس على مقعدٍ قرب المدخل، يتأمل المكان في صمت، بينما كانت لينورا تحرك يديها بخفة، فتضيء المشاعل المعلقة على الجدران، لينتشر ضوء دافئ يبدّد بعضًا من برودة الأجواء.

اقتربت منه بخطوات مترددة وجلست قبالته، ثم قالت بصوتٍ خافت:

ـ ونيس، هل أنت بخير حقًا؟ أشعر أن هناك شيئًا تخفيه عني.

أدار ونيس رأسه نحوها ببطء، يحاول إخفاء الصراع الذي يشتعل في داخله.

أراد أن يقول لها الحقيقة، أن يخبرها بما قاله الساحر، لكنه تذكّر شرطه... وتذكّر أسيل.

قال وهو يحاول التحكم بنبرة صوته:

ـ "أنا بخير، فقط مرهق من الطريق."

لم تقتنع لينورا، لكنها لم تُعلّق، بل تابعت:

ـ "تعلمتُ تعاويذ كثيرة في هذا الأسبوع... لو رأيتَ كيف كان خادم البحث يقاومني!"

ابتسمت قليلًا، ثم أضافت:

ـ "لكنني أقسم أنني كنتُ أستطيع الشعور بمكانك في كل مرة أحاول السيطرة عليه... كأن جزءًا من روحك ينادي عليّ."

شعر ونيس أن الكلمات تخترق دفاعاته، فخفض بصره نحو الأرض، وتذكر كسر الزجاجة والشرط القاسي الذي ينتظره.

من بعيد، كان جاد يراقبهما بصمت.

في تلك الليلة، بينما كانت لينورا غارقة في ترتيب أدواتها السحرية، جلس ونيس قرب النافذة المفتوحة، ينظر إلى القمر الذي ظهر نصفه خلف السحاب.

كان قلبه في سباق مع الوقت؛ كل لحظة يقضيها هنا تجعله أقرب إلى كشف أمره، وأبعد عن اتخاذ القرار.

همس لنفسه:

ـ "كيف يمكنني أن أقتلها؟ هل أنا غبي لأصدق أنه يمكنني ذلك؟"

شعر بخطوات تقترب، فالتفت ليجد لينورا تقف خلفه، تحمل كوبًا صغيرًا من شرابٍ دافئ.

ناولته إياه وقالت بابتسامة حزينة:

ـ "أعلم أن هناك شيئًا يؤلمك، لكن مهما كان... لا تحمل العبء وحدك."

كاد ونيس أن ينطق بالحقيقة، لكنه أوقف نفسه في اللحظة الأخيرة، واكتفى بابتسامة باهتة.

في الخارج، كانت الغابة ساكنة على نحو مريب، بينما الريح تحرك أغصان الأشجار ببطء كأنها تهمس بأن شيئًا ثقيلًا يقترب.

ونيس كان يعلم أن وقت القرار لم يعد بعيدًا... وأن الخيار الذي أعطاه له الساحر، لن ينتظر طويلًا.

يرد عليها ونيس وهيقلها انه حتي هوا كان يبحث عنها ليرجعها ويقلها انها امه قلقة عليه

وهوا واخدها وراجع هتقلو انها تحبه وطول فترتها وهي تدور علبه

قال ونيس بصوتٍ حاد، وعيناه تلمعان بنظرة لا تحمل سوى الجليد والاحتقار:

– حب؟ من انتي حتى لتقولي لي شيئًا كهذا؟ لا أعرف عنكِ سوى اسمك... وبعض التفاصيل التي بالكاد أذكرها. حب من طرف بني البشر؟ يا له من وضعٍ بائس. أنتم ضعفاء... تتعلقون بأتافه الأسباب، تتشبثون بكلمة اخترعتموها لتبرير مشاعركم: "الحب".

ثم ضحك بمرارة، وأكمل:

– كيف لكِ أن تحبينني وأنتِ لا تعرفينني؟ عرفتِ منذ زمن أنني هجين، وبعدها حصل ما حصل وظننتك قتلتي... حين شفاكِ صديق والدي، الساحر، وذهبتِ معه لتملكي القوة؟ الآن تقفين أمامي لتقولين إنكِ كنتِ تبحثين عني؟

تغيّرت نبرة صوته، امتزجت بالغضب والاشمئزاز:

– يا لكِ من تافهة. أكره بني البشر... أنتم ومشاعركم الرخيصة. أنتم فيروس، لا مشاعر. بعد ان قتلكم ذالك البشري نكرا بعد ان

تعقبني ليقتلني ولم يقتلني حتي بل عرفني علي قواي لقتله كم انه امر مضحك جا ليقتلني فقتلته

صمت لحظة، ثم قال:

– بعد موته، أمرني والدي أن أغادر... ولو لم أفعل، ربما كنتُ قد أحرقت البشرية كلها بنيران غضبي. كنت صغيرًا، لا أتحكم بشيء... فكيف بي الآن؟ الآن أستطيع محوهم جميعًا، بداية من منزلكِ . لكن لا قيمة للأمر... لا متعة في قتل من لا يساوون شيئًا.

اقترب خطوة نحوها:

– بعد أن غادرت، ذهبت لأرض المتحولين، إلى قوم أمي... الأرض التي حاولتِ أن تصلي إليها، لكن أمّي منعتك. كانت تعلم أنكِ ستموتين قبل أن تطئي عتبتها. شَفَقت عليكِ، وأنتِ لا تستحقينها.

ثم نظر جانبًا، ملامحه تتغير قليلًا، كأن شيئًا ما اخترق جدار بروده، لكنه سرعان ما عاد يُمسك نفسه، وقال:

– ذهبت مع أختي إلى هناك... ثم سئمت، وغادرت. ويا لحسن حظّي أنني وجدت فتاة... فتاة لا ترى، لكنها أبصرتني كما لم يفعل أحد. رافقتني، ولو لوقتٍ قصير... ثم قُتلت وها أنا ذا، أواجه وحدي انهياري، كلّه لأجل فقدانها.

صمت قليلاً، ثم اكمل بغضب قائلاً:

– مجموعة من البشر الحقيرين غدروا بها... اختطفوها بينما كنت منشغلاً في الساحة. اقسم لو كنت أعلم وجوههم... لأذقتهم جحيمًا لا نهاية له، لجعلتهم يتمنّون الموت، وأحرمه عليهم.

ثم نظر إلى لينورا، نظرة تمزج بين الاشمئزاز والخذلان:

– البشر لا يعرفون سوى الخيانة... وحين يتعلّق الأمر بحماية أنفسهم، يتساقطون كالذباب. أنتم مثيرون للاشمئزاز. لا أعلم لماذا وُجدتم أصلًا.

ثم بصوتٍ ساخر، قال:

– وتخبريننـي أنكِ ذهبتِ لتدرسي السحر لتبحثي عني؟ يالَكِ من مثيرة للشفقة.

ساد الصمت... نظرت إليه لينورا بعينين مصدومتين، لا تعرف أهذا هو ونيس الذي عرفته، أم كائن آخر خرج من الجحيم.

ثم قالت أخيرًا، بصوتٍ خافت، لكن نبرته تنزف ألمًا:

– لكني انتظرتك كل هذا الوقت... درّبت نفسي، وتعلّمت، وواجهت الموت لأصل إليك... هل هذا ما أصبحت؟ كيف تغيّرت لهذا الحد؟ كيف تخطيت كل ما حدث وكرهته لهذه درجة.؟

تقدّم ونيس خطوة أخرى، وقال بصوت هادئ:

– كيف تغيّرتِ تسألين؟... بل كيف لم أتغيّر؟

صوته صار أعلى، أقسى، كأن كل الألم الذي دفنه انفجر دفعة واحدة:

– كنت أظنّ أني منكم... من بني البشر، أملك قلبًا، أبحث عن دفء.

اقترب منها حتى صار على بعد خطوتين، نظر إليها من علٍ وقال:

– أنا لم أتغيّر... أنا فقط كشفت حقيقتي. أنا لست مثلكم. لستُ مثلهم. أنا مزيج من دماء لا ترحم، ونار لا تنطفئ. أنا الهجين... من لا ينتمي، من لا يُكسَر، من لا يُحب.

تراجعت لينورا خطوة إلى الوراء، عيناها امتلأتا بالدموع، لكنها لم تسقط ثم قالت.

– أنا... أنا لم أختفِ، كنت أحاول أن أكون أقوى، لأساعدك، لأفهمك، لأصل إليك، لكنك الآن تقف أمامي وكأنك... غريب.

ضحك ونيس، ضحكة قصيرة باردة:

– غريب؟ بل أنا حقيقتي. أنتم أردتم أن أكون ضعيفًا، أن أكون نسخة منكم، أن أطيع مشاعري، أن أصدّق خرافة اسمها "نحن". لا، يا لينورا... نحن لا شيء. لم نكن شيئًا منذ البداية.

ثم استدار، بخطاه الثقيلة، يبتعد عنها، وقبل أن يخرج، قال بصوت ثابت:

– لا تلحقي بي، ولا تنتظريني. إن كان فيكِ شيء من العقل، فانسيني... كما نسيتُكم جميعًا ،كنتي تعني لي الكثير ولكن لم تعودي كما كنتِ كل شي انتهاء عندما ظننت انك قتلتي.

خرج ونيس من المنزل، وصوت خطواته يثقل الأرض تحت قدميه، بينما قلبه يشتعل بصراعٍ مرير. كان يعرف أنّ كلماته كسرت قلب لينورا، وربما أطفأت في عينيها آخر بريق أمل... لكنه أقنع نفسه أنّ هذا الطريق هو السبيل لرؤية أسيل من جديد.

تمتم لنفسه، وصوته بالكاد يُسمع:

ـ "إن كان هذا ما سيجعلني أرى أسيل... فسأتخلّى عن الجميع لأجلها."

اختفى بين أشجار الغابة، حيث الليل أكان كثير سواد، والهواء مشبع برائحة الأرض الرطبة. اختبأ بين الظلال، وعيناه لا تفارق

ذلك المنزل. لم يتحرك... كان ينتظر، مثل صيّاد صبور، أن تخرج لينورا.

مرّت الدقائق كأنها ساعات، حتى رأى ضوءًا باهتًا من باب المنزل، وظهرت لينورا بخطوات متثاقلة، رأسها منخفض، وملامحها غارقة في الحزن. كانت وحدها... لا تشعر بوجوده، ولا تدري أن الظلام يضمّ قاتلها بين ذراعيه دخلت لينورا الغابة لتنسي ما قاله ونيس.

تقدّم ونيس من خلفها ببطء، صوته في عقله يهمس:

ـ عذرًا، لينورا... لكنك لم تعودي تلك التي عرفتها.

وقبل أن تلتفت، كانت يداه قد أحكمتا قبضتهما، تحول لهيئته وبيده تخترق صدرها ببرود قاتل. شهقت لينورا، وعيناها اتسعتا في ذهول، وكأنها لم تصدّق ما حدث. قطرات الدم تساقطت على الأرض، ورائحة الموت امتزجت مع هواء الغابة.

همست بصوت مكسور:

ـ ونيس... لماذا؟

اقترب من أذنها، وصوته حاد كحدّ السيف:

ـ أسف ولكن هذه لأجل أن اراَ أسيل.

انسحبت أنفاسها الأخيرة، وسقط جسدها بلا حراك، تاركًا الغابة أكثر صمتًا من القبور.

وقف ونيس فوق جثمان لينورا، أنفاسه تتلاحق، والليل من حوله يزداد صمتًا وكأن الغابة نفسها تحبس أنفاسها. الضباب بدأ يتشكل أمامه، ومن بينه خرج الساحر بابتسامته الماكرة، قائلاً:

ـ "ها قد وفيتَ بوعدك... وأنا جئت كما وعدت."

لكن قبل أن ينطق ونيس بكلمة، اخترق الهواء صوت حادّ، تبعه اهتزاز غريب في الأرض. التفت ونيس بسرعة... فإذا بظلّ ضخم

يقترب بخطوات ثابتة. كان ساحر جاد، وملامحه متجهمة، وعيناه تتقدان بغضب لا يوصف.

لم يمنحه جاد فرصة للتفكير، بل أطلق عليه خيوطًا من السحر الناري، التفّت حول جسده كأغلال من لهب، وشدّته بقوة حتى جثا على ركبتيه. حاول ونيس المقاومة، لكن الختم السحري الذي أطلقه جاد على صدره بدأ ينهك جسده ويشلّ قواه شيئًا فشيئًا.

رفع جاد يده، والسحر يتجمّع فيها كدوامة قاتلة، وقال بصوت عميق:

ـ "ستموت كما قتلت لينورا... وبيدي أنا، أتقتل من كان يبحث عنك أتقتل من احبك وترك دياره وأهله لجل البحث عنك."

شعر الساحر الذي جاء لوعد ونيس بمدى قوّة جاد، فاختفى في لحظة قبل أن يُكشف أمره، تاركًا ونيس يواجه مصيره وحده.

حاول ونيس أن ينطق، لكن الختم السحري على فمه منعه من الكلام. اقترب جاد أكثر، ورفع يده ليُطلق الضربة الأخيرة... لكنه توقف فجأة، وابتسامة ساخرة ارتسمت على وجهه.

ـ "لا... موتك الآن شرف لا تستحقه. سأجعلك عبرة."

ومع حركة سريعة من يده، سيطر جاد على جسد ونيس بالكامل، وكأن الخيوط السحرية أصبحت جزءًا من روحه. لم يعد ونيس قادراً على المقاومة أو حتى تحريك إصبعه، وصار يسير خلف جاد كالدمية.

همس جاد، وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ "ستذهب إلى ملكة السحر... هي وحدها من سيقرّر ما تفعل بك."

اقترب الساحر جاد من جثمان لينورا، جاثيًا على ركبتيه، وبدأ يتمتم بتعاويذ الشفاء، لكن كلما حاول أن يمد يده إليها، ارتدت الطاقة السحرية عليه وكأن قوة خفية تمنع الحياة من العودة إليها. زفر بضيق، وقطب حاجبيه وهو يهمس:

ـ "انتهى الأمر... "

مد يده فوق جسدها، وأطلق تعويذة عميقة غلّفت لينورا بضوء باهت، ثم اختفى جسدها في ومضة من السحر، تاركًا الأرض خاوية إلا من آثار دمائها.

اقترب جاد من ونيس المقيَّد بخيوط السحر، عيناه تضيقان ببرود وهو يقول:

ـ "لا... لن أتركك مثلما تركك وألدك في تلك المرة، فأنت في أرض السحرة وأصبحت روحك الان مُلكٌ للسحرة، ومصيرك سيُحدَّد في مملكة السحر، حيث لا مفرّ من العدالة."

رفع جاد يده، فتشكّلت أمامه دائرة سحرية عملاقة، تتوهّج بالرموز القديمة وتعلوها ألسنة من اللهب الأزرق. سحب ونيس بقوة إلى داخلها، ليجدا نفسيهما في قاعة هائلة تتدلّى من سقفها أشياء غريبة تضئ، جدرانها مزيّنة بنقوش عن أحكام السحر وقوانين الدم.

كانت ملكة السحر تجلس على عرشٍ أسود يلمع ببريق سحري، عيناها تتقدان بسطوة لا تُقاوَم. رفعت بصرها إلى جاد، ثم إلى ونيس المقيَّد، وقالت:

ـ جاد... ما الذي جئتني به؟

انحنى جاد أمامها، وردّ بنبرة خاضعة:

ـ مولاتي... هذا الفتى متهم بقتل الساحرة لينورا، وقد قبضتُ عليه متلبّسًا بجريمتِه. لم أجرؤ على الحكم فيه، تمنيت ذلك ولكن نحن في أرضك يمولأتي، فجئتُ به إليكِ لتقرري ماذا ستفعلين به

تقدمت الملكة ببطء من عرشها، نظرتها كالسيف تخترق ونيس، ثم توقفت أمامه وقالت:

ـ "أنت... نصفك بشر ونصفك ذئب. لكن دمك ملوّث بجريمة لا تُغتفر... دم الساحرة."

ارتجّت القاعة، واصطفّ الحرس من حوله، بينما تقدّم مستشارو الملكة يتناقشون بصوت خافت:

ـ "الإعدام فورًا!"

ـ لا... فلنستخلص منه قوته قبل أن يُمحى!

رفعت الملكة يدها فأُسكت الجميع، ثم قالت بصرامة:

ـ سيُحاكم أمام محكمة السحر العُظمى، وهناك فقط سيُقرَّر مصيره.

وانسحب جاد ببطء، تاركًا ونيس تحت رحمة عرش السحر، حيث بدأت خيوط مصيره تُشدّ إلى نهايتها..

اقتيد ونيس إلى القاعة العظمى في مملكة السحر، حيث اجتمع المئات من السحرة من كل الأقاليم. سقف القاعة يتلألأ بأحجار مسحورة تبعث نورًا غريبًا، والجدران مزدانة برموز قديمة عن الطاعة والعقاب. كان الهمس يتردّد في كل زاوية، لكن الجميع صمتوا حين تقدمت ملكة السحر بخطوات ثابتة إلى عرشها الأسود العظيم.

رفعت يدها فأُحضر ونيس إلى منتصف القاعة، مقيّدًا بسلاسل سحرية تلتف حول جسده كأنها أفاعٍ حية. عيناه حمراوان من التعب، لكنه ظلّ يحدّق إلى الأرض بصمت.

قالت الملكة بصوت جهوري:

ـ "أيها السحرة... لقد جُمعنا اليوم لنشهد محاكمة هذا الفتى، ونيس، الذي تجرأ على سفك دم الساحرة لينورا. دم الساحر عندنا مقدّس، وجريمة القتل لا تُغتفر."

تعالت أصوات السحرة من حوله:

ـ "اقتلوه!"

ـ "ليمُت أمام أعيننا عبر السحر ذاته الذي استخدمه!"

حين أُوقف ونيس في منتصف القاعة العظمى، والجموع من السحرة تحدّق فيه كأنهم ذئاب تنتظر فريستها، شعر للحظة أن عينيه تُثقلان، وأن جسده لم يعد يحتمل.

لكن فجأة... أبصر ظلًا يقف عند أحد أركان القاعة. كان ذلك الساحر الغامض، الذي وعده أن يعيد له أسيل. رفع الساحر إصبعه وأشار إلى جانبه... وهناك، رأى ونيس صورة أسيل واقفة، تنظر له بعينيها الواسعتين كما رآها في آخر مرة.

وبين الهتافات التي تصرخ بالقتل، رفعتِ الملكةُ يدها فسكت الجمع، ثم تابعت:

ـ " ونيس... هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟ "

ارتجف قلبه، ودمعت عيناه، لكن قدماه بقيتا ثابتتين. ابتسم ابتسامة مكسورة، ثم رفع رأسه نحو الملكة والجموع، وقال بصوت متهدج:

ـ "قاتلت من أجلها... من أجل أن أراها. وها أنا ذا... أراها أخيرًا في أخر ماتبقي من حياتي. لكن يبدو أن لقاؤنا لم يكن إلا ظلًا من ذكرى... لم يجمعنا سوى الموت... إن كنتم تريدون موتي... فافعلوه. لستُ خائفًا من النهاية، بل خائف أن أموت ولم أجدها."

ساد صمت عميق، حتى إن أنفاس السحرة خبت. نظرت الملكة إليه ببرود، ثم رفعت يدها للجلاد وأشارت.

تقدّم الجلاد، والسلاسل السحرية تشتد حول جسد ونيس حتى غرزت في لحمه. في اللحظة الأخيرة، لم يصرخ... بل ظلّت عيناه معلّقتين على صورة أسيل، كأنها كانت الحقيقة الوحيدة التي أراد أن يحملها معه إلى نهايته.

ارتفع صوت الملكة، صارخًا:

ـ "القصاص للسحرة!"

وانفجرت سلسلة من الحرارة حول ونيس، حتى اختفى جسده في غبار أسود تناثر في الهواء، ولم يبقَ منه سوى صدى كلماته الأخيرة، يهمس بين جدران القاعة:

ـ "أسيل... هل كان جزاتي انني احببت لم اكن مع من احب ولم يحبني من احب واحبني من لم احبه وقتلته لأجل شخص لم يحبني"

أما الساحر الذي أراه تلك الصورة، فقد ابتسم ابتسامة غامضة... ثم اختفى كما جاء.

انتشرت أخبار موت ونيس سريعًا في أنحاء المملكة، حتى وصلت إلى إيلمار. لم يصدق ما سمعه... ظل يردد في نفسه:

ـ "ونيس؟! لا يمكن... مستحيل أن ينتهي هكذا!"

خرج هائمًا بين الغابات يبحث عن أثرٍ، عن جواب، عن تفسير... حتى اعترض طريقه ذلك الساحر الغامض الذي كان قد وعد ونيس من قبل.

ابتسم الساحر ابتسامة باردة وقال:

ـ "أتبحث عن صديقك... أم عن تلك الفتاة؟"

شدّ إيلمار قبضته وقال بعناد:

ـ "كلاهما... إن كان ونيس قد مات، فسأعرف لماذا، وإن كانت الفتاة حية فسأجدها."

اقترب الساحر منه وهمس:

ـ "صديقك هو من اختار طريقه. تلك الليلة... حين طلب منكَ الافتراق لتكثيف البحث، لم يكن يريد سوى أن يخدعك. ذهب وحده إلى لينورا، الفتاة التي أتيتم من أجلها، وقتلها... فقط ليعيد إليه أسيل، التي لم يتخلّ عنها قلبه يومًا."

تجمّد إيلمار في مكانه، والصدمة ترتسم على وجهه. تمتم بصوت متقطع:

ـ "ونيس... فعل هذا؟!"

ضحك الساحر بخبث:

ـ "ضحّى بكل شيء، بصداقة، بحياة، وحتى بدمه... لأجل حبٍّ لم يكن له. وها هو قد نال جزاءه... الموت بين أيدي السحرة، كان حلمه البسيط، أن يسمع منها كلمة وتجيبه بأخرى... أن تقول له "أحبك" ولو كانت كذبة، كان سيسعد بها كأنها حقيقة.

كان يتمنى أن تصبح له، إلى الأبد.

أخبرني أنه كان ليستطيع أن يتحدّى العالم لأجلها، أن يقف في وجه العالم بأسره لديه قوة جيده كانت ممكن أن تعطية فرصة للهرب، لو فقط همست بما يطيب قلبه

ثم أشار الساحر بيده، فظهرت صورة ضبابية لوَنيس في لحظاته الأخيرة داخل القاعة:

مقيد بالسلاسل، جسده يتهالك، لكنه لم يصرخ، ولم يطلب الرحمة. عيناه ظلّتا معلّقتين على صورة أسيل، وهمس بصوتٍ مبحوح:

ـ "أسيل... إن كان هذا جزائي... فقد أحببتُك بصدق... لكن لم أكن يومًا مع من أحببت، ولم يحبني من أحببت، وأحبني من لم أحب... وقتلته لأجل قلبٍ لم ينبض لي."

وانفجرت الحرارة من حوله، واختفى جسده في غبار أسود تناثر بين أرجاء القاعة، تاركًا صدى كلماته يجلجل في آذان الجميع.

أغلق الساحر يده، فاختفت الصورة، بعدها اختفي ساحر أيضا وبقي أيلمار في مكانه وكأن الأرض ابتلعته في حيرته.

ظلّ قلبه يتأرجح بين خيارين بعد أن اختفي ساحر أن يهرب ويترك كل شيء وراءه، أو أن يعود إلى أم ونيس ويضع الحقيقة بين يديها، مهما كانت قاسية.

عاد بخطوات ثقيلة، كأن كل شجرة في الغابة تحاول أن تعرقله، وكل ريح تذكّره بوجه ونيس المبتسم كما كان يومًا.

وعندما وصل إلى بيتهم، وجدها جالسة قرب الباب، كأنها كانت تترقبه.

اقترب منها، جثا عند قدميها، وقال بصوتٍ مبحوح:

ـ "اقترب إيلمار من الأم، وصوته متهدّج:

ـ "ونيس... لن يعود يا خالة. لقد مات بين أيدي السحرة... مات من أجل حبٍّ لم يُكتب له أن يكون. وحتى الفتاة التي ذهبنا لأجلها... لينورا... قتلها هو بيده، ظنًّا أن السحر سيعيد له أسيل."

ساد صمت ثقيل. أغلقت الأم عينيها، وكأنها لا تريد أن تسمع أكثر، ثم همست:

ـ رحل ابني... ورحل قلبي معه.أحبته لينورا، كانت أول صديقة له وآخر صديقة عرفها في حياته. أنا أثق أن قتله لها كان أصعب ما واجهه في دنياه، لكنه فعل. وانتهى كل شيء ياليتني لم اجعله يذهب إليها من البداية.

لم يجد إيلمار ما يقوله بعد ذلك. تركها تبكي بصمت، وخرج من الدار بخطوات بطيئة، والليل يبتلع صوته.

تمت بحمد الله

الخاتمة

في أعماق رحلة هجين، حيث تلاقت الدماء بالدموع، وسُطرت الحكايات بمداد الحزن والدم، انتهت رحلة لم يعرف أصحابها إلا القليل من الفرح والكثير من الفقد. ونيس الذي قاتل قلبه حتى الرمق الأخير، ظل وفيًّا لحلم لم يُكتب له أن يراه مكتملًا. ولينورا، أول من رأت فيه إنسانًا لا هجينًا غريبًا، دفعت بحبها ثمناً لم تكن تدرك أنه سيأخذ حياتها. أما أسيل، التي كانت شرارة البداية، فبقيت سرابًا يطارده، حبًا مستحيلًا لم يُمهله القدر أن يجتمع به.

هكذا، رحل الثلاثة... لم يعش أيٌّ منهم مع من أحب، وكأن القدر كتب عليهم أن يظل الحب في قصتهم جرحًا مفتوحًا لا يندمل. لقد علّمونا أن الحب ليس دائمًا خلاصًا، بل قد يكون لعنة، وأن القلب إذا أحب بصدق قد يقوده إلى نهايات مظلمة، لكن رغم ذلك يبقى أعظم ما في الوجود.

هذه النهاية ليست سقوطًا، بل صرخة خالدة في وجه الحياة، لتذكّرنا أن الحكايات الكبرى لا تُخلّدها النهايات السعيدة، بل تلك التي تترك في قلوبنا أثرًا، وتوقظ فينا سؤالًا لا جواب له.

وهكذا، تُغلق صفحات "أرض الشتاء"، الجزء الثاني من "رحلة الهجين"، لتبقى شاهدة على قصة حبٍّ لم يكتمل، وتضحيةٍ لم تُفهم، ونهايةٍ حملت بين سطورها مزيجًا من الألم والخلود.

مع خالص الامتنان،
زين الدين زيدان